زوبريتسكي، كيروف، مترويولسكي

المشاعة، الرّق، الإقطاع

التشكيلات الاجتماعية - الاقتصاديّة ما قبل الرأسماليّة



ترجمة:
جورج طرابيشي



دار الطليعة - بيروت

المشاعة، الرّق، الإقطاع

التشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية ما قبل الرأسمالية

المشاعة، الرق، الإقطاع

التشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية ما قبل الرأسمالية

تأليف:
زوبريتسكي، كيروف، متروبولسكي

ترجمة:
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

ص.ب ١١١٨١٣
بيروت ــ لبنان

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٧٨

مدخــل

في ١٩٦٠ ، في مغارة اولدوي في تانغانيقا ، تم العثور على عظام انسان عاش قبل زهاء ٦٠٠٠٠٠ عام . الى جانبـــه كانت ترقد حجارة منحوتة نحتا فجا . ولم تكن هذه الحجارة ســـوى الادوات الاولى التي صنعها الانسان لتأمين قوتـــــه بمزيد من السهولة وللذود عن نفسه من الوحوش بمزيد من النجع .

على أن بني البشر لبثوا مع ذلك في عجز شبه مطلق امام قوى الطبيعة . كانوا يهيمون على وجوههم ، بحثا عن الطعام ، فـــي السباسب والمفازات الشاسعة التي كانت تغطي يومئذ سطح الكرة الارضية. وكانت حياتهم لا تزال قريبة غاية القرب الى الحيوانية.

تصرمت ألوف السنين . تعاقبت أجيال لا تقع تحت عد . وها هوذا الانسان اليوم يؤكد بقدر متعاظم باستمرار من السيادة والقوة سيطرته على الطبيعة ، فيعيد تشكيـــــل الارض بحسب حاجاته ويتجاوز نطاقها الى الفضاء الخارجي .

ما اعظم الطريق الذي اجتازته الانسانية !

لكن ما العقبات التي انتصبت على طريقها ؟ كيف تم التطور الاجتماعي بدءا من النقيل (١) ما قبل التاريخي ووصولا الى مجتمعنا الحاضر ؟

ان هذه الاسئلة موضوع لفرع خاص من العلم يسمى بالتاريخ .

لكن أنى للتاريخ ان يطال أحداث الآونة القصية التي لم يكن فيها لا كتب ولا صحافة دورية ؟ ان أقدم «كتاب» يجد فيه العالم أخبار ايام البشرية الاولى هو الارض . فحين كان الانسان ما قبل التاريخي يغادر الاماكن التي اقام فيها ، كانت الارض تدفن في باطنها الادوات والاطلال التي هجرها . وبعدئذ قدم الباحث ... وبحذر لامتناه رفع طبقات التربة طبقة طبقة . وكان أعمق المستويات بمثابة الصفحة الاولى في التاريخ البشري التي تروي أخبار العصر الاولي الذي شهد تكوين المجتمع البشري ... ثم انضافت الى **كتاب الارض** مصادر عظيمة اخرى ، كالاغاني والاساطير . ففي الاغاني يتكلم الشعب عن حياته ومنجزاته وماضيه ، ويتصل الطارف بالتليد . بيد ان العلماء توصلوا الى تمييز ما هو حقيقي في التراث الشفهي ، والى قراءة التاريخ كما كان فعلا . وفي وقت لاحق ايضا ظهرت النقوش على الحجارة وألواح الخزف وأوراق البردي ... وهي في شطرها الاعظم سرد لأخبار الايام الغابرة ، بيان بقواعد الحياة والقوانين السارية المفعول في تلك الازمنة السحيقة القدم . وذلك ما اتاح للتاريخ ان يعيد بناء الماضي القصي ...

لكن ماذا يقول علم اصل الانسان ؟ كيف يفسر تكوين المجتمع؟ لقد لاحظ العلماء منذ زمن بعيد التشابه الكبير بين حياة الانسان

---

١ ـ النقيل : La Horde العشيرة البدائية الهائمة . «م»

وحياة الحيوانات ، وعلى الاخص القردة الشبيهة بالانسان Anthropoides . وقد برهن عالم الطبيعيات الكبير تشارلز داروين على ان بنية الجسم والهيكل العظمي والاحشاء وتركيب الدم ونمو الجنين وخواص أخرى في الجهاز العضوي للانسان تتشابه من اكثر من وجه مع القرود الشبيهة الحالية (الشامبانزي ، الغوريلا ، الاورانغ ـ اوتانغ ، الشق) . وفي ذلك برهان على القرابة البيولوجية بين الانسان والحيوانات الاكثر رقيا. لكن البقايا المستحاثة من القرود الشبيهة والمنقرضة الانواع منذ قديم الازمان تنم عن تشابهات ألفت للنظر ايضا . ولا مناص من الاستنتاج من ذلك ان تلك القرود ما قبل التاريخية الراقية النمو كانت في آن واحد أسلافنا نحن واسلاف القرود الشبيهة المعروفة لدينا في ايامنا هذه .

منذ ما ينوف على ٣٠ مليون سنة كانت تلك القرود الكبيرة الاولى تعمر الغابات المدارية . وعلى امتداد الالوف والالوف من السنين كانت ذريتها تتكيف تكيفا متغايرا مع الشروط المحيطة . وقد احتذى القسم الاعظم منها بطراز الحياة الحيواني ، ولم يشذ عن النهج سوى أسلاف الانسان . وقد اعتمد القبناسيون (٢) رويدا رويدا الوضعية العمودية او القائمة . وبفضل ذلك تحررت اعضاؤهم العليا ؛ وعند الخطر كان اولئك الاسلاف البعيدون للانسان يمسكون ، بدافع من الغريزة ، بالقضبان والحجارة التي بمتناولهم ويستخدمونها اسلحة دفاعية او هجومية . وبالتدريج تزايد استعمال تلك الاشياء للصيد او لاقتلاع الجذور الصالحة

---

٢ ـ نحتنا هذه الكلمة من «الما قبل أناسيين» كترجمة للمصطلح اللاتيني Préhominiens الذي يشير الى مرتبة من الثدييات الرئيسات من الدهر الرابع ، الوسيطة بين البشر والقرود الشبيهة . «م»

للاكل . وقد أسهم الاستعمال النظامي للحجارة والقضبان بدوره في ارتقاء الجهاز العضوي ، وعلى الاخص في تحويل اليد .

كان القبناسي ، عند استعماله الحجارة ، يختار في البداية تلك التي تتناسب بقدر الامكان مع الهدف المنشود . لكنه تعلم في زمن لاحق كيف ينحتها ويشحذها بطرقها بحجارة اخرى . هكذا شرع أسلافنا يصنعون الادوات الاولى التي تساعدهم على اقتناء القوت .

لا يستطيع اي حيوان ، مهما يكن راقيا ، ان يصنع لنفسه ادوات . الصناعة ، العمل اذن هما اللذان حررا الانسان من الحالة الحيوانية . وبظهور العمل تشعبت الدروب التي كان يسلكها أسلاف الانسان والقرود الشبيهة . فقد استمرت القردة الشبيهة على منوال حياتها الحيواني وما امكنها ان تتكيف مع الطبيعة المحيطة . اما الانسان فقد حول نفسه بنفسه اثناء نضاله ضد قوى الطبيعة ، بدفع من حياة العمل والكد ، وفي زمن لاحق بدفع من الرقي الاجتماعي . وطفق يؤثر تأثيرا فعليا ونشيطا في الطبيعة ، ويرغمها اكثر فأكثر على خدمة غاياته وأهدافه .

هكذا غدا الانسان ، تحت تأثير الارتقاء البيولوجي ، مؤهلا للعمل . بيد ان العمل ساهم بدوره في الرقي العام لجهازه العضوي . وقد كان تأثيره بالغا في تحول اليد على وجه الخصوص. فقد راحت تزداد على الدوام قدرة اليد على استخدام الادوات ، مكتسبة المزيد من المرونة والدقة والتنسيق في الحركات الضرورية . وبات الانسان ، بفضل ادواته ، يحصل على كمية اكبر بكثير من القوت النباتي واللحمي . وأسهم الغذاء اللحمي في ارتقاء اعضائه ، وقبل كل شيء ، في نمو دماغه وتطوره . لكن الدور الحاسم في تلك التبدلات الطارئة على الجهاز الدماغي يرجع الى نشاطه الكدحي . فقد كان الانسان يلحظ اثناء عمله خواص الاشياء المحيطة ، ويكوّن فكرة عامة عن تلك الاشياء ــ فكرة يتحقق من صحتها في الممارسة ــ ليهتدي في

خاتمة المطاف الى العلائق بين الاشياء والظاهرات . هكذا استرعى انتباهه ، وهو يصنع ادواته الحجرية الاولى ، ان بعض الصخور تتميز بقابلية الانفلاق الى صفائح رقيقة قابلة بسهولة الى التحويل الى أنصال او مكاشط . على هذا النحو رأت النور ملكة التفكير . وصار في مستطاع الانسان ان يتوقع نتائج جهوده . وغدا نشاطه الكدحي ، الغريزي واللاواعي في باديء الامر كما لدى الحيوانات، اكثر معقولية وتوجيها . هكذا أسهم العمل في تطور المخ البشري ، وأثرت ملكة التفكير بدورها على تقدم المهارة والحذق في صناعة الاشياء .

ان العمل شيء لا يمكن تصوره بالنسبة الى الانسان المفرد المنعزل . فحتى يتمكن البشر من العمل ، التأم شملهم على الدوام في جماعات . ولهذا السبب ظهرت لدى الانسان الحاجة الى مبادلة افكاره والتواصل مع أقرانه . وفي مجرى العمل ولدت وتطورت اللغة ، اداة تبادل الافكار . فقد تطورت اللغة بدءا من الاصوات التي تصدر غريزيا عن الحيوانات حين يتهددها خطر ما. لكن لغة الانسان ليست أغنى وأشد تنوعا بآلاف المرات من تلك الاصوات فحسب ، بل عكست من البداية ايضا الطابع الواعي لنشاط الانسان ، وليس غرائزه وحدها .

وفي مجرى العمل ما ونت اللغة في تحسن مطرد الى ان تحولت في الختام الى لغة منطوقة .

كان لظهور اللغة اهمية قصوى بالنسبة الى تقدم البشرية . فقد اسهمت في التقاء الجهود داخل الجماعات ، وساعدت على تنظيم العمل الجماعي . وبفضلها تضاعفت الخبرات والتقنيات وانتشرت وعمت .

العمل اذن هو الذي لعب الدور الحاسم في تكوين البشرية. وكان اول العلماء الذين لحظوا تلك الواقعة ومنحوها الاهتمام الذي تستوجبه هما مرشدا شغيلة العالم قاطبة ، كارل ماركس

(١٨١٨ ـ ١٨٨٣) وفريدريك انجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) ، اللذان اعلنا ان «العمل هو الذي صنع الانسان» .

تصرمت ألوف اخرى من السنين ... وزاد العمل الجماعي في تعزيز التلاحم بين البشر . لكن الجواب على سؤال واحد ، السؤال المتعلق بمعرفة اصل الانسان ، لا يمكن ان يفسر لنا كل الطريق الذي تم اجتيازه . إلام يرجع الدور الفاصل في الارتقاء الاجتماعي ؟ ما محرك هذا الارتقاء ؟ ما أسس الحياة الاجتماعية؟ انه ليتعذر ، من دون الاجابة على هذه الاسئلة ، فهم تاريخ البشرية .

حتى يبقى الانسان على قيد الحياة فلا بد ان تتوفر له السلع المادية الضرورية : القوت ، اللباس ، السكن ، الخ . فالحيوانات لا تستعمل الا ما تقدمه لها الطبيعة . فهي تستهلك الثمار والاعشاب ، وتفترس حيوانات اخرى وطيورا وأسماكا وحشرات. وهي تتمتع بهذه الخيرات بقدر ما ان الطبيعة أهلتها لهذا الشكل او ذاك من أشكال التغذية دون غيره . فالحيوان اللاحم من ذوات الاربع ، على سبيل المثال ، لا يستطيع مهما تضور جوعا ان يمسك بطير طائر . وعكس ذلك حال الانسان . فبفضل الادوات التي اخترعها وبفضل قدرته على الاستفادة من المواد والعناصر التي تحيط به ، يخلق بنفسه السلع والخيرات المادية الضرورية . فالعصا البسيطة تمكنه من ان يقتلع من باطن الثرى جذورا ما كان ليصل اليها قط بيده العارية . وقد امكنه ، بفضل ادواته الحجرية ، ان يتغلب على حيوانات اقوى منه بكثير . وفيما بعد ، حين اخترع القوس والنشاب والرمح والمزراق ، امكنه ان يصيب الحيوانات عن مسافة ، وأن يصطاد الطيور اثناء طيرانها ـ وهو امر مستحيل لولا تلك الادوات التي صممها بنفسه . وقد أسهم تقدم الزراعة وتربية الماشية ، ثم تطور سائر الصناعات ، بقسط وفير في توسيع مجال اختيار الوسائل التي في متناول الانسان للبقاء على قيد الحياة ، وفي إكثار السلع والخيرات المادية

وتنويعها . ونتيجة العمل هي تزويد الانسان بكمية أضخم من السلع والخيرات المادية الموجودة في الطبيعة . كما تتولد عن العمل خيرات مادية جديدة تجهلها الطبيعة . فإنسان ما قبل التاريخ كان ، بعد ان يقتل حيوانا ، يسلخ جلده ويتخذ منه معطفا يقيه شر البرد والحر . وبواسطة تلك الادوات ، ابتنى الانسان لنفسه أكواخا . ويخلق معاصرونا وفرة لا تقع تحت حصر من المواد التي لا وجود لها في الطبيعة . لكن ما دام الانسان لا يمكنه ان يبقى على قيد الوجود بدون السلع والخيرات المادية التي خلقها بنفسه ، فان انتاج تلك السلع والخيرات يشكل مبدأ الحياة الاجتماعية .

ان البشرية ، طردا مع ما تحرزه من تقدم ، تتطلب كتلة متعاظمة الاهمية باستمرار من السلع والخيرات المادية . ولهذا لا يمكن لانتاج هذه السلع والخيرات ان يبقى ثابتا راكدا ، وانما هو في تحسن دائب في مجرى العمل ، وتقدمه غير منوط بمشيئة البشر : انما هي ظاهرة موضوعية ، سنّة للحياة الاجتماعية .

لنرَ الان كيف يتطور انتاج السلع والخيرات المادية التي ترتهن بها حياة المجتمع بأسرها . فلانتاجها لا بد من ان تتوفر المواد التي سيجري العمل فيها ، والاشياء التي يؤثر بها الانسان ويفعل في تلك المواد (اي وسائل الانتاج) . ويقتضي الانتاج في المقام الاول ادوات الانتاج ، اي الوسائل التي يستخدمها الانسان في عمله ، بدءا من الادوات الحجرية الغليظة ما قبل التاريخية وانتهاء بالآلات المعقدة المعروفة في ايامنا هذه . لكن وسائل العمل وأدواته ، التي تؤلف في جملتها ما يسمى بوسائل الانتاج ، لا تولّد السلع والخيرات المادية من تلقاء نفسها . فالانتاج يقتضي باديء ذي بدء اليد العاملة ، اي الشغيلة بطاقاتهم وعلمهم ومهارتهم .

ان وسائل الانتاج التي يخلقها المجتمع ، والبشر الذين يستخدمونها لانتاج السلع والخيرات المادية ، تؤلف القوى الانتاجية للمجتمع، تلك القوى التي تمثل الجماهير الكادحة عاملها

الرئيسي والحاسم الذي اولاه للبثت وسائـــل الانتاج هامدة لا ينبض فيها عرق حياة .

يبدأ تقدم الانتاج مع تغير القوى الانتاجية ، وقبل كل شيء ، مع تجويد الادوات التي يجري تكييفها لتكون ملائمة لعمليات لا تني تتكاثر وتتنوع باستمرار . وذلك التقدم المتصل يحفز بدوره التقدم الاجتماعي ، فتخف بالتالي وباستمرار قيود تبعية الانسان للطبيعة . ويحدد المستوى التقني درجة سيطرة الانسان على قوى الطبيعة . فقد كان في وسع انسان ما قبل التاريخ ان يقطع ، بفأسه الحجرية ، شجيرات ، لا الغابة . لكن تلك الفأس تحولت الى اداة احتطاب بعد تحسينها وتزويدها بمقبض خشبي . ولمـا صارت ذات مقبض اطول ، تحولت تلك الفأس الى معزقة تسمح بتسوية الارض وتنعيمها في الحقل . وقد اتاح تطور الفأس ذاك للانسان ان يضاعف عدد حقوله الاولى ، وان يغير حياته بتمامها في خاتمة الامر . ومع تطور الزراعة ، طرات على المجتمع تحولات هائلة . ويدخل اليوم استعمال الآلات الحديثة تغييرا جذريا على نمط حياة معاصرينا ، ويوفر لهم المزيد من الحماية مـن نزوات الطبيعة .

هكذا تتحدد مختلف العصور والحقب في حياة البشرية، اول ما تتحدد ، بالادوات التي يتم بها انتاج السلع والخيرات المادية. وعليه ، وحتى نكوّن فكرة صحيحة عن التطور الاجتماعي ، فلا بد في المقام الاول من تحليل عامله الرئيسي : تقدم انتاج السلع والخيرات المادية . لا بد ان نعرف ما الادوات التي استعملت في انتاج السلع والخيرات المادية ، ما القيمة المهنية لليد العاملة . . . وبكلمة واحدة ، يجب ان نعرف مستوى قوى المجتمع الانتاجية.

لكن انتاج السلع والخيرات المادية مستحيل ، كما سبق ان ذكرنا ، بدون مشاركة البشر الجماعية . ففي مجـــرى العمل ، تقوم علاقات محددة بين بني الانسان : علاقات الانتاج التـــي تتضمن الروابط والاواصر التي تنعقد بين الافراد في ســـيرورة

الانتاج (تضافر الجهود ، تقسيم العمل ، المساعدة المتبادلة، الخ)، ومختلف أنماط توزيع الناتج (التوزيع على اساس حصص متساوية ، او بحسب العمل المقدم من قبل كل فرد ، الخ) ، وأخيرا ، وعلى الاخص ، جميع أشكال ملكية وسائل الانتاج (الملكية الجماعية ، الخاصة) . ومسألة ملكية وسائل الانتاج هي اهم المسائل اطلاقا ، لانها تحدد في التحليل الاخير العلاقات بين البشر المنصرفين الى الانتاج وأشكال توزيع الناتج على حد سواء . وعليه ، حين تكون ملكية وسائل الانتاج جماعية ، يعمل الجميع بالتساوي ويتلقى الجميع حصتهم من السلع والخيرات المادية . وحين تعود ملكية وسائل الانتاج الى أفراد ، يمكن لمالكيها الا يشاركوا في العمل مشاركة مباشرة . وفي الوقت نفسه ، يرى اولئك الذين لا يملكون وسائل الانتاج انفسهم مكرهين على التوجه الى اولئك الذين يملكونها ، وعلى العمل لا لحسابهم فحسب ، بل ايضا وعلى الاخص لحساب رب العمل الذي يستأثر بالتالي بزبدة السلع والخيرات المادية التي خلقها كدح الآخرين .

بشكل ملكية ادوات الانتاج ووسائله يرتهن اذن ، في التحليل الاخير ، امر علاقات الانتاج ووضع مختلف الفئات الاجتماعية في الانتاج . وكما نزمع ان نبرهن في هذا الكتاب ، تتحدد علاقات الانتاج بمستوى قوى المجتمع الانتاجية .

يرث كل جيل عن الجيل السابق مستوى معينا من تطور القوى الانتاجية . ولهذا فان ارتقاء نمط الانتاج في مجمله ، او بعبارة اخرى مستوى قوى المجتمع الانتاجية ، وكذلك طابع علاقات الانتاج ، ليس رهنا برغائب الناس وارادتهم ، وانما تتحكم به قوانين موضوعية .

تشكل علاقات الانتاج ، اي النظام الاقتصادي القائم ، أسس الحياة الفكرية والاخلاقية للمجتمع . انها في اساس الافكار والنظريات الاجتماعية والعلاقات الايديولوجية ؛ ومنها تتألف البنية التحتية التي يقوم عليها كل بنيان المؤسسات السياسية

والحقوقية والثقافية . لكن عناصر البنية الفوقية على اختلافها ، ان تكن متحددة بالنظام الاقتصادي فانها تؤثر بدورها في التطور الاجتماعي ، فتسرّعه او تكبحه . وعليه ، ان السياسة النبيهة ، الفطنة ، التي تأخذ في اعتبارها مقتضيات الاقتصاد تساهم في تقدم هذا الاخير . وعند دراسة تاريخ البشرية ، لا يكفي ان نحلل النظام الاقتصادي للمجتمع ؛ بل لا بد ايضا من دراسة بنيتـــه الفوقية . وهذه الطريقة في فهم ماضي الانسانية ومستقبلهـــا تعرف باسم التصور المادي للتاريخ . وقد كان ماركس وانجلز اول من أرسيا أسس ذلك التصور وبرراه علميا . والتاريـــخ برمته يثبت صحته .

ان التصور المادي للتاريخ يرى في هذا الاخير تطورا وتعاقبا لأنماط تاريخية محددة من المجتمعات البشرية . وتعرف هـــذه الانماط من المجتمعات باسم التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية. وهي ، بحسب تسلسلها التاريخي ، التالية : المشاعة البدائية ، الرق ، الاقطاع والرأسمالية . ونحن نمر الان بحقبة انتقالية نحو تشكيلة اجتماعية واقتصادية اكثر رقيا ، هي الشيوعية التـــي تؤلف الاشتراكية مرحلتها الاولى. وتعاقب التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية وارتقاؤها هما قانون موضوعي للتطور الاجتماعي ، قانون يتجلى للعيان منذ ظهور اول البشر وأول المجتمعـــات البشرية .

ويرمي هذا الكتاب الى ان يعرض ، في شكـــل مقتضب ، تاريخ التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية الثلاث الأوَل : المشاعة البدائية ، الرق ، والاقطاع .

الفصل الأول

المشاعة البدائية

١ ـ تكوينها

مستوى القوى الانتاجية :

لقد فصل صنع الادوات الاولى والنشاط الكدحي الانسان عن عالم الحيوان . كان ذلك قبل مليون من السنين ، لكن الانسان في البداية كان يضارع الحيوانات عجزا امام قوى الطبيعة ، وما كانت حياته تتميز عن حياتها . كان البشر القبتاريخيون ، الملتمسون على الدوام للقوت ، يتجمعون على شكل قطعان عديدة ويهيمون على وجوههم في الغابات وعند ضفاف مجاري المياه ،

يلتقطون كل ما يجدونه صالحا للاكل في طريقهم : الجذور ، الثمار ، الدويبات ، بل حتى الجيف . وفي تلك الازمنة السحيقة القدم ، ما كان الانسان يعرف بعد كيف يصنع لنفسه ملبسا او مسكنا . وكان يختبىء من الاعداء ومن الانواء ، شأن سائر الحيوانات ، بين أغصان الاشجار ، وفي الكهوف ، وفي شقوق الصخور .

لكن حتى في ذلك العصر كان الانسان يتميز بصورة ملموسة عن الحيوانات . كان قد شرع يصنع لنفسه ادوات تمكنه من تحطيم دروع السلاحف ، وكسر العظام والجوز . وكانت اولى ادواته السلاح الصواني . فقد توصل ، بطرق شظايا الحجر بعضها ببعض ، الى الحصول على ادوات تزن زهاء كيلوغرام ، مشحوذة من احد طرفيها ؛ اما طرفها الآخر او عقبها فيبقى مدورا ويقوم مقام المقبض . وكان ذلك السلاح ، الماضي في حينه ، يمكّن الانسان من قتل الطرائد ومن نبش الجذور ومن الذود عن نفسه من الوحوش . وقد استخدمه البشر ايضا في مهاجمة الحيوانات الضخمة التي كان للحمها قيمة غذائية كبرى .

علاوة على تلك الاسلحة الصوانية ، كان القبتاريخيون يستعملون ادوات خشبية : عصيا مدببة الرأس بواسطة الطرق بالحجارة ، وحرابا بدائية ، الخ .

اما العصر الذي تعلم فيه الانسان ان يصنع ادوات ملائمة لعمليات محددة فما جاء الا في زمن متأخر ، اي منذ حوالي ٣٠٠ ٠٠٠ الى ٥٠٠ ٠٠٠ سنة . هكذا رأت النور الادوات الراضّة ، والقاطعة ، وتلك المخصوصة لحفر الارض او لتقطيع القنيصة . وكان صنعها يقتضي قدرا كبيرا من المهارة والمعرفة . لكنها سمحت للانسان بالمقابل ان يؤدي مهامه على نحو أسرع وأسهل . وبذلك صار العمل اكثر انتاجية .

غدا في وسع الانسان ، بفضل ادواته الجديدة ، ان يواجه

ضواري الوحوش بمزيد من النجاح . وشيئا فشيئا تمخض ذلك عن ظهور مهارة جديدة ، القنص ، طفقت تلعب دورا متعاظما باستمرار في حياة البدائيين . كان القنص يجعل التحشدات البشرية تقبع عند الدروب وموارد الماء التي تؤمها القنيصة . وكانت هذه الواقعة تدفع بدورها البشر الى تحويل المخابيء المؤقتة التي يصطنعونها لانفسهم الى مساكن دائمة نسبيا . هكذا رأت النور مستقرات شادتها بتمامها يد الانسان . وكانت عبارة عن أخصاص من أغصان الاشجار ، ومخابىء حجرية ، ومغاور أعدت لاقامة دائمة ، الخ .

وبعد ذلك طرأ حدث عظيم على حياة أسلافنا : فقد تعلموا استعمال النار . فتلك الشعلة التي تخيف الحيوانات جميعا والتي ظلت تبعث الرهبة والتطير طوال آلاف مؤلفة من السنين في أفئدة البشر ، غدت مذذاك فصاعدا حليفتهم . في البدء ، ما كان الانسان يعرف كيف يشعل النار ، وانما كان يلتقط الجذى والجمرات التي تخلفها حرائق الغابات ويحملها معه . وكانت النار توفر له الدفء وتلزم ضواري الوحوش حدودها ؛ لكنه كان يستعملها ايضا لصنع بعض الادوات . فكان يشحذ ويقسّي بالنار القضبان التي تقوم له مقام المعازق او الارفاش. لكن النار – ولعل ذلك هو الجانب الاهم فيها – كانت تصلح للاستخدام في طهي الطعام . وبالفعل ، تعلم الانسان ان يشوي ، وان يطبخ ، ثم ان يغلي قوته . وكان الطعام المهيأ على هذا النحو أحسن قابلية للتمثل من قبل جسمه وأنفع لتطوره وأجدى . وقد كان استعمال النار في التغذية بالغ الاهمية بعد تعاظم دور القنص ، على اعتبار ان اللحم المطبوخ موائم جدا لتطور الدماغ .

لقد قلب ارتقاء الادوات رأسا على عقب نمط حياة البدائيين. وأدى العمل الى تطور العلاقة بين اعضاء الجماعة البشرية . فقد حلت تدريجيا محل العلاقات القديمة المستوحاة من الغريزة

الحيوانية علاقات ناشئة عن مشاركة الجميع في انتاج السلع والخيرات المادية .

تطور علاقات الانتاج :

في عهد تكوين النمط الفيزيائي والجسماني **للانسان العاقل**، كان البشر يجتمعون ، على غرار الكثير من الحيوانات ، في جماعات عديدة . وفيما بعد ، ومع بداية النشاطات الكدحية ، لم يتلاشَ نمط الحياة الجماعي ، بل تعزز . فنظرا الى بدائية الادوات التي كانت في متناول الانسان ، ما كان في مستطاع هذا الاخير لا ان يتدبر قوته بمعزل عن الآخرين ، ولا ان يقتل الوحوش الكاسرة التي تتهدده ، ولا ان يرد عن نفسه شر الكوارث الطبيعية. بل كان على البشر ، حتى يبقوا على قيد الحياة ، ان يوحدوا جهودهم . لكن الاواصر الجديدة التي انعقدت اثناء العمل كانت في البداية رخوة للغاية . فالجماعة البشرية كانت تسودها ، على الاخص، علاقات حيوانية ، قائمة على اساس الغريزة. وتدريجيا، ومع تقدم العمل ، تحولت التجمعات البشرية الاولى ، العارضة وغير المستقرة ، الى جماعات أثبت وأصلب ، يوحد بينها ويشد أواصرها البحث الجماعي عن القوت ، الخ .

كان جميع اعضاء القطيع البشري مضطرين الى المشاركة في جميع أشكال النشاطات الرامية الى الحصول على القوت . لكن طردا مع تطور القوى الانتاجية وتحسن الادوات ، امكن التوصل الى تقسيم العمل تبعا للسن والجنس . فقد انصرف الرجال ، وهم الاصلب عودا ، الى القنص بوجه خاص ، ليؤمنوا للجماعة اللحم والجلود . اما النساء والاطفال فكانوا يُؤدون مهام اخرى

ضرورية للجماعة : التقاط النباتات ، الصيد (١) ، الاشغال المنزلية ، تربية الصغار . وقد أدى تقسيم العمل الى تزايد تبعية اعضاء الجماعة لبعضهم بعضا . هكذا تحول النقيل الى تجمع اكثر ثباتا واستقرارا ، قائم على اساس علاقات الانتاج . وهذا التجمع كان **العشيرة** التي يرتبط اعضاؤها كافة برابطة وحدة الاصل ووحدة الحياة الاقتصادية .

كان المستوى المتدني للقوى الانتاجية والمردود الضعيف للعمل يحتمان على جميع اعضاء العشيرة المشاركة في انتاج السلع والخيرات المادية ، مما حدد بدوره شكل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج وأدواته ؛ ومن ثم ، كانت السلع والخيرات المادية الناتجة عن العمل الجماعي توزع بين الجميع بالتساوي . وعليه ، لم تكن المشاعة البدائية تعرف اي شكل آخر للملكية غير الملكية الجماعية، ولم يكن فيها وجود للتفاوت في الثروة ؛ بل كان جميع اعضاء العشيرة يتمتعون بحقوق متماثلة. وكان النفوذ الذي يمارسه هذا الفرد او ذاك مرهونا بالدور الذي يؤديه في حياة العشيرة ، وبدوره في الانتاج . كان يكسبه بتجربته ومهارته وقوته . وأكثر اعضاء المشاعة خبرة ومهارة ، وأكثرهم حظوة بالاحترام والتوقير، هو الذي كان يمارس وظائف الرئيس في القنص وفي النشاطات الاخرى .

وقد رفع تقسيم العمل من شأن دور النساء ، اذ كانت نشاطاتهن المنزلية تؤلف مصدرا للحياة اكثر موثوقية وانتظاما من القنص الذي يتعاطاه الرجال . وفضلا عن ذلك ، كانت المرأة ،

---

١ ـ بالرغم من عدم وجود فاصل لغوي صريح ودقيق ، فقد استخدمنا مصطلح «الصيد» للاشارة الى الصيد المائي ، وقصرنا مصطلح «القنص» على الصيد البري . «م»

الأم ، ربة البيت ، كما كانت تعتبر جدة للعشيرة كلها . وكانت تتدبر القسم الاعظم من وسائل الحياة ، وتربي الاطفال . وهذا ما كان يجعل سلطتها غالبة على ما سواها . ولهذا أطلق على النظام الاجتماعي في ذلك العهد اسم النظام الامومي .

تكوين النمط البدني الحديث :

بفعل العمل والحياة المشتركة واللغة اكتمل ، منذ اكثر من ٦٠٠٠٠ سنة ، التكوين البيولوجي للنمط البشري الحديث . فقد تشكل نمط بشري لا يكاد يختلف في شيء عن نمطنا نحن ، ان من حيث المظهر وان من حيث بنية الاعضاء . وقد عمد العلم ذلك الطراز من البشر باسم **الانسان العاقل** .

مع تكوّن الانسان العاقل ، اكتمل التطور البيولوجي للبشرية . ومذ ذاك ، اقتصر الارتقاء على مضامير العلاقات الاجتماعية والحضارة المادية والاخلاقية . وعلى هذه الاصعدة ايضا ، تمخض التقدم عن نتائج أخاذة ، وهو ما يزال مستمرا على مرأى منا ومشهد .

منذ غابر العصور قطن **الانسان العاقل** اوروبا وآسيا وافريقيا . وبعد ذلك بحقبة من الزمن (قبل زهاء ٣٠ او ١٥ الف سنة) تغلغل ، عن طريق مضيق بيرينغ ، الى اميركا . وقد تم إعمار القارة الاميركية الهائلة في شروط فائقة الصعوبة . لكن بالرغم من جميع تلك الصعاب الناجمة عن الانقطاع عن سواد البشرية وعن انعدام وجود حيوانات صالحة للتدجين ، استعمر محتلو اميركا الاوائل ، الهنود ، القارة بأسرها . وكانوا اول من انتخب مزروعات ، نظير البطاطا والذرة ، ما تزال تلعب الى يومنا هذا دورا كبيرا للغاية في التغذية . بيد ان تلك الصعاب

اعاقت ، الى حد ما ، التطور الاجتماعي للهنود الذين أبادهم فيما بعد الفاتحون الاوروبيون عن بكرة ابيهم تقريبا . وفي العصر نفسه تقريبا ، اي قبل زهاء عشرة آلاف سنة، بدأ استعمار اوستراليا. وقد أخرت شروط الحياة ، التي كانت هنا اقسى مما في اميركا، تأخيرا شديدا ارتقاء الاوستراليين . لكنهم توصلوا بدورهم في خاتمة المطاف الى نجاحات مرموقة . والوحشية الحيوانية التي عامل بها مستعمرو القرن التاسع عشر الاوستراليين الاصليين هي التي قضت عليهم قضاء مبرما تقريبا .

ان انتشار البشرية هذا قد جعل الشروط الجغرافية التي تخضع لها شتى التجمعات السكانية شديدة التنوع . فقد كانت بعض الاقوام تحيا تحت الشمس الاستوائية في جو الرطوبة الخانقة للغابات العذراء ، وعاشت أقوام غيرها وسط الرمال والثلوج ، وأقوام اخرى في مناخ معتدل . وقد تولدت عن تلك الفروق الجغرافية تكيفات مختلفة مع الوسط المحيط . على هذا النحو ، تكونت العروق ، اي مجموعات من الانماط البشرية تقوم بينها فوارق طبعية سطحية وثانوية ، وعلى الاخص في السمات الخارجية (لون الجلد ، شكل الانف والشفاه والعيون ، تركيب الغطاء الوبري) . ويعود دور كبير للغاية في تكوين العروق الى العزلة الجغرافية التي قضت على التجمعات السكانية بالحياة في اوساط طبيعية شديدة التباين . لكن الفوارق ذات الطبيعة العرقية لم تظهر الا بعد حقبة مديدة من تبلور نمط الانسان العاقل ؛ وهي لا تطال بحال من الاحوال الاعضاء والاحشاء الهامة. ان للبشرية كلها اصلا واحدا ؛ والعروق جميعها متساوية مطلق التساوي على الاصعدة الجسمانية والروحية والاخلاقية . وما الصفات العرقية الا نتيجة لردود أفعال دفاعية صدرت عن الجسم البشري في مواجهة شروط طبيعية غير موائمة ؛ وترجع في علتها الى التكيف مع الطبيعة المحيطة . ولما كان النمط

البيولوجي البشري في ايامنا هذه مكتمل التبلور ، فان الجسم ما عاد يستطيع التكيف مع الشروط الخارجية عن طريق تغيرات ذات طابع بيولوجي . وانما يتوصل الانسان الى ذلك التكيف من خلال صنع ادوات تقيه غائلة المناخ (على سبيل المثال ، وضع غطاء للرأس في الاقاليم الاستوائية لاتقاء ضربات الشمس ، الخ) .

لقد اخترع الامبرياليون ، تبريرا للاضطهاد الذي يمارسونه ضد الامم المستعمَرة ، نظريات يزعمون انها علمية ويستخدمونها للتوكيد بأن الفوارق العرقية هي في اصل تفوق البيض على الملونين ، وبأن تأخر شعوب افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية يجب ان يعزى الى الخصائص العرقية . لكن جميع العروق متساوية ، كما سبقت لنا ملاحظته ، من وجهة النظر البيولوجية . ويرجع تأخر بعض الشعوب عن الشعوب الاخرى الى عوامل ذات طابع تاريخي . وقد برهن العلم ان جميع الشعوب عرفت كيف تبدع حضارات متطورة ، وتقدمت في مدارج الرقي بنجاح قبل مجيء الفاتحين . وسياسة الامبرياليين الاميركيين والاوروبيين هي وحدها التي أوقفت او أبطأت التقدم في افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية . فهي لم تقوض منجزات سكان تلك القارات فحسب ، بل أرهقتهم واستنزفتهم وقضت عليهم عمليا بالعبودية وأبادت شعوبا بكاملها . وبعد ان خلع اليوم العديد من امم افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية نير الاستعمار وسار في طريق التطور المستقل ، فانه يسجل نجاحات تقدم دليلا جديدا على بطلان النظريات العنصرية . فهذه النظريات لا هم لها غير ان تقسم البشر ، وتزرع الكراهية فيما بينهم ، وتشل مبادراتهم في كفاحهم في سبيل السلم ؛ وهي ترمي الى تقويض وحدة الحركة العاملة الدولية ، وزرع الشقاق بين الشغيلة «البيض» و«الملونين» ، واصطناع التعارض بين كفاح التحرر القومي لشعوب افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية وبين نضال البروليتاريا الاوروبيين ، وفي المقام الاول

بروليتاريا بلدان المعسكر الاشتراكي ، ضد الامبريالية . وهذا هو عين الهدف الذي تخدمه النظريات (اذا جازت تسميتها بهذا الاسم) عن القيمة الاستثنائية للعرق الاسود وعن طرق التطور الاصيلة للشعوب الملونة . فهذه «النظريات» ، شأن سائر النظريات العنصرية ، تفتقد الى كل اساس علمي ، ولا تخدم سوى المصالح الانانية لاولئك الذين لا يرغبون في تقدم الشعوب وفي وصولها الى الحرية والاستقلال الحقيقيين .

٢ ـ ازدهار المشاعة البدائية

تطور القوى الانتاجية :

في الحقبة التالية ، لبث ارتقاء البشرية مرتبطا وثيق الارتباط بتحسين الادوات وبسائر المنجزات في مضمار القوى الانتاجية . وقد طفق البشر في البدء بتحسين تقنية شغل الاحجار بالدق والطرق ؛ ثم تعلموا فيما بعد كيف يحصلون على شظايا على شكل نصال حادة ، ويجهزونها بمقابض خشبية . وفي حقبة لاحقة ايضا ، تعلم الانسان صقل الاحجار ، وصناعة حراب مدببة الرأس وسواطير ومناجل وأدوات قاطعة اخرى . وزادت انتاجية العمل بفضل ذلك زيادة ملحوظة .

لكن اهم اختراع كان اختراع القوس والنشاب ، اذ رفع من شأن القنص في حياة المشاعة وجعل منه لحقبة مديدة من الزمن المهارة الانسانية الاولى . كان القنص يؤمّن للبشر لا اللحم فحسب ، بل أيضا الجلود التي تقوم لهم مقام الملابس ، وأحيانا المساكن . وكان يضع في متناولهم العظام والقرون التي كانوا يشتغلونها ليتخذوا منها ادوات . وبالتوازي مع القنص ، تطور

الصيد الذي نجمت عنه بدوره عادات جديدة . وحفز ذلك كله مردود العمل . وما عاد البشر بحاجة الى الهيمان على وجوههم في الارض طلبا للرزق . وراح يستقر بهم المقام اكثر فأكثر في اماكن محددة ، ويركنون الى الحياة الحضرية . عندئذ صمم الانسان مساكنه المبنية الاولى . وكانت المنازل احيانا عبارة عن نجائر Palafittes ، اي قرى مشادة على أوتاد مغروسة في قيعان البحيرات والانهار القليلة العمق .

لقد اتاح نهوض انتاجية العمل والانتقال الى الحياة الحضرية البشرية ان تستغني عن اللقاط والقطاف بأشكال بدائية للزراعة . فقد ادرك الناس انه في المستطاع بذر الحبوب على مقربة من القرية وأنه ليس من الضروري ان يجوبوا الارض طلبا للنباتات المأكولة . وكانت الذرة البيضاء والشيلم والشعير والحنطة اولى المزروعات التي زرعها الانسان . وقد ظهرت الاشكال البدائية للزراعة ، اول ما ظهرت ، في الاقاليم الموائمة لنبت الزرع (ما بين النهرين ، وادي النيل ، الهند ، ايران ، اوكرانيا ، الخ) . وفي تلك المناطق صارت الزراعة تدريجيا الفرع الرئيسي للاقتصاد ، وانفصلت كامل الانفصال عن اللقاط والقطاف والقنص .

ومنذ عهد المشاعة القروية زرع الانسان جميع النباتات التي نعرفها اليوم تقريبا .

وقد قلص الانتقال الى الزراعة من تبعية الانسان للطبيعة ، لان المردود المرتفع نسبيا لعمل المزارع اتاح منذ ذلك الحين المجال لتكوين احتياطيات تلافيا للكوارث الطبيعية وسوء المواسم وعدم التوفيق في القنص ، الخ .

في آن واحد مع الزراعة تقريبا ، بدأت تتطور تربية الحيوان . وفي البدء كان الانسان يزرب الحيوانات المتوحشة في اماكن مسورة ، لتكون له بمثابة احتياطي جاهز من اللحم .

ثم اهتم بمضاعفة الماشية المزروبة . وفي البدايـــة ما كانت الحيوانات الاهلية تنتج سوى اللبن واللحم . ولم يتعلم الانســان كدنها الا في زمن متأخر .

كان اول الحيوانات الاهلية الكلب الذي كان يساعد الانسان في القنص ، ثم البقرة والنعجة والعنزة والخنزير . وقبل مـــا يقارب ۸۰۰۰ او ۹۰۰۰ عام انتشرت تربية الحيوان على سعة في أفريقيا ، وعلى الاخص في مصر ، وفي آسيا الغربيــة والصين والهند وأوروبا .

ووفرت تربية الماشية للانسان ، علاوة على المنتجات الغذائية، الصوف والجلود ومواد اخرى ضرورية للحياة .

الى جانب القبائل التي راحت تنتقل تدريجيا الى الزراعــة وتربية الحيوان ، لبثت قبائل اخرى تعيش فقط على القنــص والقطاف . كانت تقطن في الامصار القاحلة حيث الحياة شظفة . لكن ابناء تلك القبائل ادخلوا تحسينا كبيرا على القوس والنشاب، واخترعوا افخاخا للطرائد ، وابتكروا طرائق أحسن لمعالجــة الجلود . كما جمعت قبائل القاطفين معلومات نافعة عن عالــم النبات والخواص الطبية لبعض النباتات ؛ كذلك تعلمت استخدام ليف المزروعات . ورويدا رويدا انتقلت تلك القبائل بدورها الى أشكال اقتصادية ارقى ؛ وفي مسيرة تقدمها استفادت مـــن الادوات الجديدة والخبرة وأسرار العمل التي راكمتها بنفسها او التي راكمتها العشائر المجاورة .

تغير في علاقات الانتاج :

لم تتولد عن الزراعة وعن تربية الماشية ، في مرحلتهمـــا الاولى ، أشكال جديدة للملكية . فقد ظلت الملكية الجماعية لادوات

الانتاج ووسائله قائمة كما هي ، لان فلاحة الارض بالمعزقة او ممارسة تربية الحيوان في الزرائب كانتا تتطلبان اتحاد جميع جهود الجماعة . وكان العمل الجماعي يحدد الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج من ارض ومناطق قنص الخ . كذلك حافظت الحياة المنزلية على طابعها الجماعي : فقد كانت المساكن تؤوي مئات الاشخاص .

لكن الانتقال الى حياة اكثر حضرية عزز الروابط الاقتصادية والانتاجية بين العشائر . فاحتماء من الوحوش ودفاعا عن مخزونات الاغذية وذودا عن المساكن من نزوات الجيران العدوانية، راحت العشائر المتجاورة تتجمع في شكل قبائل . وبظهور الروابط القبلية ظهرت الملكية القبلية . وهكذا صارت الارض المأهولة من قبل القبيلة ومناطق قنصها وصيدها تعتبر ملكا للقبيلة كلها . وقد أسهم اجتماع العشائر بقسط وفير في انتشار تقنيات جديدة ، وفي ظهور لغات وحضارات قبلية .

لكن بالرغم من الشكل القبلي للملكية احتفظت كل عشيرة باستقلال كبير في حياتها الداخلية ؛ كما حافظت على ملكية مناطق قنصها ، الخ . وبهذه الصورة ، لم تؤد ولادة شكل اوسع للتشارك (القبائل) الا الى توسيع نطاق الملكية الجماعية ، من دون ان تدخل عليها تعديلات ذات شأن .

وحتى نظام ادارة شؤون العشيرة والقبيلة لبث مطابقا لعلاقات الانتاج المشاعية . فجميع شؤون العشيرة او القبيلة كان يتولى تصريفها الزعماء ومجالس الزعماء المنتخبين . ولم تكن حظوة هؤلاء الزعماء تستند الى غير صفاتهم الفردية : الخبرة ، المهارة في القنص ، البسالة في الحرب ، الحكمة . ولم تكن سلطتهم وراثية . ومن منظور الثروة ما كانوا يختلفون أيما اختلاف عن اعضاء القبيلة . من هنا لم يعرف نظام المشاعة البدائية مؤسسات تشبه الدولة ، بل كانت ادارة شؤون العشيرة والقبيلة تتم وفق

مبادىء الديموقراطية العشيرية ، اي على اساس المشاركة المتساوية للاعضاء كافة في تصريف الشؤون العامة .

بدايات الفن والدين :

تحسنت معرفة الانسان ، في مجرى تطوره وارتقائه ، بالواقع المحيط ، وبالوجود الاجتماعي ، وقبل كل شيء بانتاج السلع والخيرات المادية ، او بعبارة اخرى بمجمل الكيان الاجتماعي . وقد انعكس هذا الكيان في أشكال مختلفة في وجدانه ، وكان من اول تلك الاشكال الفن الذي يعيد انتاج الواقع في صور تشكيلية .

كانت المعالم العجيبة لبعض الاحجار والصخور تذكر الانسان بوجوه الحيوانات ، فعمل على تعميق ذلك التشابه بنحتها وتلوينها . وفيما بعد شرع برسم الوجوه الانسانية ، بل صور على جدران الكهوف مشاهد مركبة حقيقية تروي أحداث فترة كاملة من حياته . وكانت تلك الرسوم تمثل بأسلوب واقعي للغاية الوحوش ومشاهد قنص ، وباختصار كل ما يصادفه الفنان في حياته اليومية . وبعبارة اخرى ، كانت مواضيع اللوحات تنهل من معين الوجود بالذات .

على هذا النحو ، لم يكن الفن منذ بداياته الاولى سوى طريقة لاستنساخ مشاهد العالم المحيط وأشيائه في شكل خاص.

وفي أوج نظام المشاعة الريفية ما كان في مستطاع الانسان بعد ان يفهم الاوالية العميقة للظاهرات الطبيعية وتعاقبها وتداخلها وتأثيرها على الحياة . وكان يشعر على الدوام بعجزه امام العناصر المنفلتة من عقالها . وقد قاده هذا الضعف ، هذا الجهل بقوانين الطبيعة ، الى الايمان بسلطان قوى وهمية لا يُفهم لها كنه . ولم تكن التصورات الدينية التي نجمت عن ذلك الايمان

سوى انعكاس خيالي في وجدانه لعناصر موجودة وواقعية .

رات التصورات الدينية النور قبل اكثر من ٣٠٠٠٠ او ٤٠٠٠٠ عام . ففي ذلك العهد ، كان البشر يرون في بعض الحيوانات أسلافهم وأرواحهم الحارسة (الطواطم) . ويطلق على ذلك المعتقد اسم الطوطمية (٢) . وكانت كل قبيلة تسعى الى تملق الحيوان الطوطم واستمالته والتماس مساعدته . هكذا ولدت عقيدة الارواح اللامادية المحبوة بسلطان خارق للطبيعة (الأرواحية) Animisme . فالبدائيون ما كانوا يفهمون صفة قوى الطبيعة . بل كانوا يشبهون الطبيعة بأنفسهم ، فيسبغون عليها سمات كائن لامادي ومحبو في الوقت نفسه بجميع القدرات والمواهب الانسانية ، وبقوة غير قابلة للتفسير . وكانوا يتصورون الرعد والعاصفة والانهار والغابات في شكل كائنات خارقة للطبيعة ، هي آلهة الرعد والماء الخ . والايمان بما هو خارق للطبيعة تولدت عنهبدوره جملة من التعازيم والرُقى والتمائم الخ.

كان الانسان ، العاجز عن تفسير الموت ، يشعر ازاءه برهبة خرافية ، وعلى الاخص عند وفاة اشخاص كان لهم في حياتهم سلطان على اعضاء المشاعة البسطاء : كبار المحاربين ، الزعماء ، الخ . وفي مخيلة الجمهور ، كان هؤلاء الاموات وحتى صورهم يتقلدون سلطانا خارقا للطبيعة . وفي زمن لاحق ظهرت كذلك فكرة عالم آخر مأهول بأرواح الموتى . وقد عبرت الرغبة في استمالة عطف القوى الخارقة للطبيعة عن نفسها في عادة الاضاحي ، اي الهدايا التي ترفع الى الآلهة .

واضح للعيان اذن ان التصورات الدينية الاولى كانت ثمرة

---

٢ ـ معلوم ان لفظ الطوطم اشتق من «اوطوطيمان» من العهد الكونكي التي تعني «هو من قرابتي» .

الاحساس بالعجز في مواجهة الطبيعة . وقد أسهمت الاديان البدائية في دوام حالة العجز تلك ، لانها كانت تحول دون المعرفة العلمية بالعالم وتصرف الانسان عن دراسة الطبيعة وتعيق في الوقت نفسه تطوره الفكري .

٣ ـ انحلال المشاعة البدائية

نهوض القوى الانتاجية في العصرين البرونزي والحديدي :

في الالف الثامنة قبل العهد الميلادي طفق الانسان في آسيا وافريقيا واوروبا يستعمل المعادن الطبيعية في صنع ادوات العمل . وقد عرفت هذه المهارة الجديدة انتشارا واسعا في بداية الالف السادسة قبل العهد الميلادي ، وذلك عندما تعلم البشر صهر الفلزات لاستخراج المعادن ، ومزج هذه الاخيرة للحصول على المعادن الخليطة . وقد زادت الادوات المعدنية زيادة كبيرة انتاجية العمل ، وكفلت نهوضا عاما لقوى المجتمع الانتاجية .

لقد بات في مستطاع الانسان ، بعد ان تسلح بأدواته الجديدة ، ان يشتغل الحجر والقرن والخشب بسرعة اكبر ؛ كذلك بدأ بصنع معازق ومناجل وأدوات حراثة اخرى من المعدن. وقد ابتكر أسلافنا ، بمحاكاتهم حركات ايديهم ، الآلات الاولى : دولاب الخزاف ، النول البدائي .

لعبت الادوات المعدنية دورا بالغ الاهمية في تقدم الزراعة . ففي المناطق الحارة والقاحلة حيث تتعذر زراعة النباتات الا عند سفوح الجبال ، طفق الانسان يحفر اقنية وينشىء سدودا . وفي الوديان الخصبة لمسالك المياه ، بنى اقنية ترفع الماء الى الحقول في المواسم الجافة . اما في الامصار الاقل خصوبة ، فقد قطع الاشجار وأحرق الارومات والجذور ، وفلح بعد ذلك الارض

ليبذرها . وكان انهاك التربة يجبر الناس على الانتقال من حقل الى آخر . وكانت زراعة الوقيد (٣) واسعة الانتشار في العصر القبتاريخي .

كانت الاداة الرئيسية للزراعة المروية ولزراعة الوقيد على حد سواء المعزقة ، الحجرية اولا ، ثم المعدنية . ولهذا يطلق ايضا على زراعة ذلك العصر اسم الزراعة بالمعزقة . وبابتكار المعزقة المعدنية ادركت الزراعة مستوى رفيعا وغدت الشكل الرئيسي للنشاط الاقتصادي في المناطق الخصبة . ونظرا الى ان تربية الحيوان كانت مهنة اكثر انتاجية من القنص ، تحولت قبائل القناصين تدريجيا الى قبائل رعاة .

كان تطور الزراعة وتربية الحيوان خطوة كبرى الى الامام في تاريخ البشرية . وتوصل الناس ، بجهودهم وكدحهم ، الى انتخاب انواع جديدة من النباتات والى تسخير جميع الحيوانات الداجنة المعروفة لدينا اليوم تقريبا لخدمتهم . وصار الانسان يحصل على كميات متزايدة باستمرار من السلع والخيرات المادية . وتحسنت انتاجية العمل فضمنت للمجتمع نهوضا سريعا .

تغير في انتاج السلع والخيرات المادية :

كان انقسام البشرية الى قبائل زراع وقبائل رعاة اول تقسيم اجتماعي للعمل . لكن علاوة على اهمية ذلك التخصص ، لعب تضاعف الاحتكاكات والاتصالات بين الرعاة والزراع دورا كبيرا في تقدم القوى الانتاجية . فقد صارت الحيوانات (الابقار ، الخيل ،

---

٣ ــ الوقيد : حرق الشجر للزرع في موضعه . «م»

الحمير) تستخدم كحيوانات للجر ، مما أوجد شروطا ملائمة لاستعمال ادوات جديدة كالمحراث البدائي ذي السكة المعدنية الذي رأى النور في بلاد ما بين الرافدين والهضبة الايرانية في الالف الخامسة قبل العهد الميلادي .

أحدث استعمال المعادن تغيرات اخرى في الحياة الاجتماعية. فقد كان استخلاصها من الفلزات وشغلها وصناعة الخزف وغيرها من المهن الجديدة تتطلب عدة خاصة ، مما اوجد حاجة في داخل المشاعات الى قيام مجموعات من الشغيلة تحوز على المعلومات الضرورية لممارسة تلك الصناعات وتكرس نفسها وكامل وقتها لمعالجة المعادن وصنع الادوات الخزفية ، الخ .

هكذا ظهرت الى حيز الوجود شريحة من الحرفيين في داخل المشاعة البدائية . وكان العمل الحرفي يهدف اساسا لا الى الحصول على السلع الاستهلاكية ، وانما الى انتاج ادوات العمل وغيرها من الادوات التي لا غنى للمجتمع عنها .

ان امكانية هذا التقسيم الاجتماعي الثاني للعمل لم تبرز الى حيز الوجود الا حين أتاح تطور القوى الانتاجية للمشاعة القدرة في ان تلبي الى حد ما حاجات جميع اعضائها ، بمن فيهم اولئك الذين لا يشاركون مشاركة مباشرة في انتاج السلع الاستهلاكية وان كانوا يؤدون مع ذلك عملا ضروريا من وجهة النظر الاجتماعية .

ان التقسيم الاجتماعي الاول والثاني للعمل قد عزز الروابط ووثق الاواصر بين المشاعات . وادى نهوض انتاجية العمل في مشاعات الرعاة الى تكوين فوائض من الماشية والجلود والصوف واللحم ؛ ولكن تلك المشاعات عانت بالمقابل من نقص الحبوب والخضار وغيرها من المنتجات الزراعية . وحدث عكس ذلك بالضبط بالنسبة الى مشاعات الزراع . هكذا وجدت الحاجة الى تبادل منتجات العمل . لكن لما كانت القيم التبادلية تنتج بصورة

جماعية وتعود ملكيتها الى المشاعة بأسرها ، كانت المبادلات تتم بدورها لا بين الافراد ، وانما بين المشاعات ، وكانت السلع التي تتأتى عن طريق التبادل توضع في خدمة الجماعة بأسرها على غرار ثمار العمل الجماعي لاعضاء المشاعة .

رويدا رويدا انتظمت المبادلات وشرعت تؤثر تأثيرا مباشرا على الانتاج . وكانت القيم التبادلية الرئيسية تتمثل اولا في الماشية، ثم في المعادن والسلع المعدنية والادوات ووسائل الزينة الخ .

لقد نجم عن التغيرات في علاقات الانتاج تغيرات اخرى في الحياة الاجتماعية للمشاعات . فتربية الحيوان كانت ، كالقنص في الماضي ، عملا يمارسه الذكور في المقام الاول . ولهذا تعاظم دور الاعضاء الذكور من قبائل الرعاة في الاقتصاد ، وصار عملهم رويدا رويدا المصدر الاول لتأمين السلع المادية للمشاعة . اما في مشاعات الزراع فقد طرأ ذلك التبدل في زمن متأخر نسبيا . لكن حين صارت الزراعة القطاع الاساسي في الانتاج الاجتماعي ، خصت المشاعة الرجال ، دون النساء ، بالعمل في الحقول . ومع انتشار المحراث ، صارت الزراعة بصورة نهائية اختصاصا مذكرا. اما دور المراة في المشاعات الرعوية والزراعية فقد اقتصر اكثر فأكثر على العناية بالشؤون المنزلية وتحول من مصدر رئيسي لانتاج السلع والخيرات المادية ، شأنه في الماضي ، الى نشاط ثانوي . ومع تعاظم دور الرجل في انتاج السلع والخيرات المادية ، طفق يحتل المكانة الاولى في الحياة الاجتماعية ايضا (لان رفاهية العشيرة غدت منوطة به الان) . والمجتمعات التي يتولى فيها القيادة الرجال يطلق عليها اسم المجتمعات الابوية . وكما في السابق ، كان زعيم العشيرة (وهو رجل الان) ينتخب من قبل جميع السكان الراشدين . وكان اعضاء العشيرة يتعاونون معه وينصاعون لقراراته بقدر ما يقرون بأهلياته وحظوته . وعليه ، وبالرغم من التغيرات الهامة التي طرأت على المشاعة البدائية ، لم

يكن انقسام المجتمع الى طبقات قد ظهر الى حيز الوجود بعد .

ازمة علاقات الانتاج :

ادركت انتاجية العمل تدريجيا مستوى مرتفعا اطمأن معه جميع اعضاء المشاعة الى حصولهم على وسائل معاشهم ، بل صار في مقدورهم ان ينتجوا اكثر مما يتطلبه قوتهم وقوت عيالهم . (بديهي انه لا يجوز ان يغيب عنا هنا وضع نقص التغذية المزمن الذي كان يعاني منه البدائيون) . وذلك الفيض في المنتجات يسمى فائض النتاج ، كما يسمى العمل الضروري لانتاجه بفائض العمل . وقد اتاح ظهور فائض النتاج امكانية استغلال الانسان للانسان .

في ذلك العهد ، لم يعد البشر مكرهين على التعاون فيما بينهم على شكل جماعات للحصول على السلع والخيرات المادية الضرورية . فقد بات اعضاء العشيرة يمارسون الان اعمالا متباينة ؛ وكانت انتاجية العمل تختلف باختلاف الفروع ، ومال دور المنتجين الى عدم التساوي . هكذا ظهر الى حيز الوجود عدم التوافق بين علاقات الانتاج والمستوى الجديد للقوى الانتاجية. وغدت تدريجيا علاقات الانتاج القديمة المتسمة بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج والتوزيع المساواتي لمنتجات العمل ، عائقا يكبح القوى الانتاجية ، ولم يعد هناك مناص من ان تخلي الساح امام علاقات انتاج جديدة .

وبدلا من العشيرة اضحت خلية الانتاج الاساسية متجسدة في جماعة أقل تعدادا ، هي الاسرة الابوية . فقد انفصلت هذه الاسرة رويدا رويدا عن العشيرة لتغدو وحدة اقتصادية قائمة بذاتها . وصارت الروابط بين الاسر تقوم الان على اساس

العلاقات الاقتصادية ، لا على اساس قرابة الدم . وبذلا مـــن المشاعة العشيرية ظهرت المشاعة الاقليمية الملتحمة بأواصر الجوار ووحدة المصالح الاقتصادية .

لكن العلاقات القديمة استمرت بصورة جزئية في المشاعـة الجديدة . ومن ذلك ان القوة الانتاجية الرئيسية ، الارض ، ظلت تعتبر ملكية جماعية ، لكن كل عائلة كانت تفلح حصتها وتستغل قطعة ارضها على حدة . اما في القبائل الرعوية ، فقد اضحت القطعان ملكية للاسر . وطفقت الاسر الابوية تنتج كميات متنوعة من السلع التي صارت ملكا خاصا لها ولم تعد تذهب للاستهلاك الجماعي . وأول ما انتقل الى الملكية الخاصة الماشية ، وأدوات البيت ، وبعض ادوات العمل ، ومنتجات العمل الشخصي . وقد تم ازدهار الملكية الخاصة على حساب الملكية الجماعية .

بظهور الملكية الخاصة ، غدت أملاك الاسرة وراثية . وعلى هذا النحو ظهر التفاوت بين اعضاء المشاعة . وانعشت الملكية الخاصة المبادلات في داخل المشاعة . وتعاظم بنتيجة ذلك التفاوت فـــي الثروة بين اعضاء المشاعة .

في زمن لاحق ، أدى تحسن انتاجية العمل الى ظهور ملكية الانسان ، المنتج المباشر للسلع المادية . فحين كـــان الانسان لا ينتج سوى الكمية اللازمة كي لا يقضي نحبه جوعا ، كان يتعذر عليه استغلال نظيره . لكن حين بدأ العمل ينتج ولو مقدارا ضئيلا يفيض عن كمية السلع اللازمة لمعاش المنتج ، صار في مستطاع مالكي وسائل العمل وأدواته ان يرغموا المحرومين منها على العمل لحسابهم ، ليستولوا من ثم على فائض نتاج عملهم .

كان اول ضحايا الاستغلال اسرى الحرب . فقد تحولـــوا تدريجيا الى أرقاء لا يطعمون الا بمقدار ما ينتجون فائض نتاج . وحين كانت نفقة الرقيق تزيد عما يدره على صاحبه ، كان هذا الاخير في حل من قتله .

هكذا ظهرت في أواخر عهد المشاعة البدائيـــة ، الى جانب

المنتجين الاحرار ، يد عاملة مسترقة تعمل لا لتلبية حاجاتهــا الذاتية وانما لإغناء مالكيها وزيادة ثرواتهم . ودشن ظهور الرق عهدا تاريخيا جديدا ، هو عهد استغـــلال الانسان للانسان . وانقسم المجتمع ، الذي ما كان يعرف في الماضي سوى شكـــل واحد من الملكية هو الملكية الجماعية ، تدريجيا الى ثلاث فئات او طبقات اجتماعية رئيسية ، تكونت بحسب علاقتها بأدوات العمل ووسائله . وهي ، اولا ، الارقاء المحرومون من كل ملكية والذين لا يعدون هم انفسهم ان يكونوا ملك سادتهم ، وثانيا سادة الارقاء المالكون لادوات الانتاج ووسائله ، وأخيرا اعضاء المشاعة الاحرار الذين يستثمرون مستثمراتهم بقواهم الذاتية وبأدوات ووسائل الانتاج التي في حوزتهم . وبمرور الزمن ، آل معظم هؤلاء الملاك الصغار الى افلاس وخراب ، وتحولوا بدورهم الى أرقاء .

لقد غدا نظام المشاعة البدائية الان مقطوعا حبل الرجاء منه . ولم يعد عمل الرجال الاحرار ، اعضاء المشاعة المتساوين، المصدر الرئيسي للسلع والخيرات المادية .

لقد دخلت البشرية في تشكيلة اجتماعية واقتصادية جديدة، هي الرق .

الفصل الثاني

الرق

١ ـ المجتمعات الرقية في آسيا وافريقيا .

تكوّن المجتمع الرقي تدريجيا ، طردا مع توطد مواقع طبقة السادة المستغِلة التي ظهرت في قلب المشاعة البدائية ، وطردا مع تطور الرق . وكان نمط الانتاج الجديد اكثر تقدمية من نظام المشاعة البدائية ، لان انعتاق جزء من السكان من العمل المادي والجسماني (وهو الانعتاق الذي اتاح امكانيته نمو فائض النتاج الاجتماعي) كان هو وحده الذي يفسح في المجال امام استمرار التقدم .

الرق المشاعي والابوي :

اجتاز نظام الرق ، على امتداد حياته المديدة ، مراحل عدة . كانت اولاها الرق المشاعي . وقد ظهر في قلب المشاعة البدائية، حين كانت الغلبة ما تزال فيها لشكل الملكية الجماعية . في ذلك العهد ، كان الارقاء ملك المشاعة بأسرها . والشكل الابوي للرق قريب للغاية من الرق المشاعي . وقد ظهر هو الآخــــر في قلب المشاعة البدائية وتعايش لحقبة طويلة من الزمن مع العلاقـــات المشاعية ومخلفاتها وبقاياها . كان عدد الارقاء قليلا ، وما كـان عملهم يلعب دورا راجحا . وكان للرق ، اذا جاز التعبير ، طابع مقنّع ، وكثيرا ما كان يأخذ شكل المساعدة من قبل العشـــيرة والقبيلة . فمقابل القوت الزهيد المقدم من قبل عضو غني فـــي المشاعة (في غالب الاحيان الزعيم او الكاهن) كان أسير الحرب او ابن العشيرة الذي حل به الافلاس والخراب يلزم بتقديم عمله كله له . ومع التقدم العام للملكية تثبّت تدريجيا «الحق» لا في امتلاك السلع المادية فحسب ، بل في امتلاك منتجيها ايضا . وكان ابن العشيرة الذي حل به الافلاس والخراب او أسير الحرب الذي جرى «تبنيه» يتحول الى رقيق لا في واقع الامر فحسب ، بل شرعا وقانونا ايضا ، اي يتحول ، بعبارة اخرى ، الى ملـــك لسيده .

كانت المصادر الرئيسية للحصول على الارقاء يومئذ الحروب والنخاسة واسترقاق اعضاء المشاعة المفلسين بغل الديون. وفيما خلا فروق طفيفة ، نلفى تلك المصادر في تاريخ المجتمعات الرقية في القارات كافة .

الطبقات :

في ظل نظام الرق انقسم المجتمع البشري لاول مرة الـــى

طبقات . وكما سبقت الاشارة ، تعود هذه الظاهرة في أصلها الى علل اقتصادية ، اي الى علاقات الانتاج .

ان العلاقة بوسائل الانتاج هي المعيار الفاصل بخصوص الطبقات الاجتماعية ، وهي التي تحدد سائر معالمها وقسَماتها الاساسية : المكانة التي تحتلها في العمل الاجتماعي ، حجم المداخيل ومصدرها ، الخ . وعليه ، يمكن ان نطلق اسم الطبقات على فئات واسعة من الناس تحتل مكانة متباينة في اطار نظام معين للانتاج الاجتماعي وتتميز عن بعضها بعضا بعلاقتها (التي يثبتها ويكرسها القانون بوجه عام) بوسائل الانتاج ، وبوظائفها في التنظيم الإجتماعي للعمل ، وبالتالي بطرق الحصول على الثروات الاجتماعية التي تضع اليد عليها ، وبحجم هذه الثروات .

وفي غالب الاحايين يمكن للمرء ان يميز في المجتمع اكثر من طبقتين اثنتين .والحقيقة ان الطبقات قد تكون رئيسية وغير رئيسية . وتطلق صفة الرئيسية على الطبقات التي ينبع وجودها من نمط الانتاج بالذات . ففي المجتمع الرقي كانت الطبقات الرئيسية طبقتي الارقاء وسادتهم . لكن كان الى جانبهم الفلاحون الاحرار والحرفيون وفئات اجتماعية اخرى . ويمكن ان يكون لوجود الطبقات غير الرئيسية علل عديدة : مخلفات نظام بائد ، تبرعم عناصر من نظام اجتماعي جديد اكثر تقدمية ، او الامران كلاهما معا ، الخ . والطبقات اما أن يكون محكوما عليها بالزوال والانقراض مع تقدم نمط الانتاج السائد ، وإما ان يكون لها على العكس المستقبل ، وعندئذ تتكاثر وتتضاعف وتعزز مواقعها طردا مع شيخوخة نمط الانتاج القديم وتوطد أركان النمط الجديد .

كيف ظهرت الدولة :

مع تضاعف عدد الارقاء اشتد التناحر بين طبقتي المجتمع

الرئيسيتين : الارقاء والسادة . ولم يكن استغلال الارقاء اول شكل من أشكال الاستغلال المعروفة في التاريخ فحسب ، بل كان ايضا أدهاها وأشدها وحشية .

وكان صعبا كذلك وضع الرجال الاحرار الذين كانوا يعيشون عيشة خمول وكفاف في ظل البؤس والاملاق ، مسلطا على رقابهم باستمرار سيف الاسترقاق بسبب الديون .

ولم يكن في مستطاع السادة ان يتحكموا في رقاب الارقاء والمواطنين الاحرار ، وأن يرغموهم على العمل لصالحهم ، وأن يضاعفوا الثروات ويكدسوها ، وأن يشبعوا جشعهم الذي لا تشفى له غلة ، الا اذا وجدت هيئة اكراه وإلزام دائمة . وقد تلبست هذه الهيئة تدريجيا شكل الدولة .

كانت واحدة من اولى وظائف الدولة الرقية (شأن سائر الدول الاستغلالية أصلا ، سواء أكانت اقطاعية ام رأسمالية) قمع المستغَلين . وكانت الدولة تشن باستمرار حروب فتح ، فتنهب الاقوام المقهورة وتسترقها او تلزمها بدفع الجزية . من هنا كانت الوظيفة الثانية لشكل الدولة الرقي : الذود عن حياضها وتوسيع نطاقها .

تؤدي هذه الدولة وظائفها بمساعدة جهاز حكومي موائم . فهي تكيف اولا ، لمقاصدها وغاياتها الخاصة ، بعض المؤسسات العشيرية والقبلية التي ما عادت تعبر الان عن مصالح العشيرة او القبيلة بتمامها ، وانما عن مصالح فئة صغيرة من الشيوخ والزعماء الذين يتحولون الى متنفذين ومتجبرين بالوراثة . ولئن كانت القوة العسكرية في زمن المشاعة البدائية تتألف من الهبّة الجماعية لاعضاء المشاعة القادرين على حمل السلاح ، فان الدولة الرقية تخلق قوة مسلحة اخرى ، معزولة عن الشعب ومناوئة له: الجيش الدائم برسم الدفاع عن المصالح الضيقة والانانية لملاك العبيد . وتظهر الى حيز الوجود كذلك محاكم تستوحي في

نشاطها لا مصالح المجتمع في مجمله ، وانما امتيازات الطبقة السائدة وحدها . ولا يكون ثمة فاصل عصرئذ بين رجال الدين والحكومة : فالأحبار يندمجون بالجهاز الاداري ويتضافرون قلبا وقالبا مع النظار والحراس والكتبة والمفتشين و«المربين» وجباة الضرائب وغيرهم من الموظفين .

وحل محل انقسام السكان بحسب مبدأ القرابة انقسام آخر قائم على المبدأ الاقليمي والاداري .

الدول الرقية الاولى في آسيا وافريقيا :

كان ظهور الدول الرقية دليلا وشاهدا على انتصار نمط الانتاج الجديد القائم على اساس استغلال اليد العاملة المسترقة. وقد تكونت اولى تلك الدول في الحقبة ما بين الالف الرابعة والالف الثانية قبل العهد الميلادي في بلاد ما بين النهرين (سومر ، أكاد ، بابل) وفي الهند والصين . وأنشئت مملكة آشور في النصف الاول من الالف الثانية قبل العهد الميلادي . وفي الحقبة نفسها ، قامت في الهضبة الوسطى من آسيا الصغرى امبراطورية الحثيين القوية . وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد تأسست على ارض اليمن الدولة العربية المعروفة باسم مملكة المعينيين . وفي حوالي القرن الثاني عشر ق.م ظهرت مملكة قوص في جنوبي مصر ، وفي الالف الاولى ق.م مملكة اورارتو في بلاد عبر القفقاس . وفي القرنين السابع والسادس ق.م رأت النور في آسيا الوسطى دول خوارزم وبكتريان وصوجيان ، وفي زمن لاحق مملكة كوشان . وفي القرن الثامن ق.م جاء دور ميديا في القسم الغربي من ايران ، ثم حلت محلها في القرن السادس ق.م امبراطورية الفرس. وبين القرنين الثامن والسادس ق.م بدأ نظام الرق يوطد قدميه في اليونان ، ثم في

روما في القرن السادس ق.م. أما في اميركا (الوسطى والجنوبية بالطبع) فقد رأت النور الامبراطوريات الرقية قبل زهاء ١٥٠ او ٢٠٠ سنة من وصول الفاتحين الاسبان (باستثناء مدن المايا الاقدم عهدا بكثير) .

اتحادات المشاعات والقبائل :

كان أقدم شكل للدولة وأكثره بدائية الاتحادات القبلية وروابط المشاعات البدائية . وقد مرت الامبراطوريات الرقية المعروفة جميعها تقريبا بتلك المرحلة من التطور .
كانت القبيلة (او المشاعة) الاقوى والاكثر تعدادا تؤلف نواة الاتحاد . ومن أسرة زعيم القبيلة (او المشاعة) كان يُختار الامير . وتحولت سلطة الامراء الى سلطة وراثية . وكانت الاسرة المالكة هي التي تقدم ايضا كبار الكهنة لاكبر المعابد . وكان اتحاد القبائل والمشاعات يتم اما عن طريق الانتماء الطوعي وإما عن طريق الضم الجبري للقبائل والمشاعات الضعيفة . وكان التوسع الاقليمي يتم عن طريق الفتوحات .

الممالك الاستبدادية :

أدى التوطد المتنامي لسلطة الزعيم ، وتوسع الآلة الادارية وتعززها ، الى تحول الاتحادات الى امبراطوريات رقية حقيقية وجدت نموذجها الامثل في الممالك الاستبدادية .
ونستطيع ان نأخذ من الوثائق الكثيرة المتوفرة فكرة عن المظاهر الاساسية لتلك الممالك . ومن جملة تلك الوثائق منظومة الشرائع التي خلفها حمورابي ، ملك بابل .

كانت بابل ، في عهد حمورابي ، تمثل عينة نموذجية عن المملكة الاستبدادية . فقد كانت السلطة العليا ، التشريعية والتنفيذية والقانونية والدينية ، مركَزة بين يدي الملك . وكان من أهم مظاهر الايديولوجيا السائدة عبادة السلطة الملكية وعبادة الممسك بتقاليدها ؛ بل كثيرا ما كان هذا الاخير يؤلـه . وكان الملك يعتمد ، في سياسة البلاد ، على جهاز بيروقراطي معقد . وكان موظفون خصوصيون يتولون تسيير شتى فروع الادارة المركزية ، بينما كان يتولى غيرهم الحكم بصفتهم حكاما او نوابا للملك في مختلف الاقاليم .

علاقات الانتاج في المجتمع الرقي :

يتيح لنا قانون حمورابي ان نكوّن فكرة عن خصائص علاقات الانتاج لا في حوض دجلة والفرات فحسب ، بل في مجمل العالم الرقي ايضا .

كانت القوة المسيطرة في بابل تتألف من مالكي عدد غير كبير نسبيا من الارقاء . وشرعة حمورابي انما كانت تحمي مصالحهم في المقام الاول . وفي تلك الشرعة تظهر بوضوح وجلاء الطبيعة الطبقية للدولة الرقية وسلطتها التشريعية . فقد اشتملت على مجموعة كاملة من البنود التي تتعلق بصورة مباشرة او غير مباشرة بحماية مصالح سادة الارقاء .

وفي اساس علاقات الانتاج الرقية كانت تكمن ملكية السادة التامة لوسائل الانتاج ولليد العاملة المسترقة .

ولئن كانت ملكية سادة العبيد هي السائدة في المجتمع الرقي ، فانها ما كانت تنفي وجود الملكية الفلاحية والحرفية الصغيرة ، كما رأينا آنفا . وما كانت بابل تشكل استثناء للقاعدة . ولكن ينبغي

ان نقول ان الفلاحين الاحرار والحرفيين كانــوا يخسرون اكثر فأكثر استقلالهم ويسقطون في أغلال العبودية . وكان المعوزون والمملقون يضطرون ، حتى يبقوا على قيد الحيـــاة ، الى ان يقترضوا من الاغنياء ادوات العمل ، والمال ، الخ . وكان عـدم سداد الديون يؤدي الى مصادرة ممتلكات المدين ، بما فيها قطعة ارضه . وكان المواطن المملق يتحول الى رقيق بسبب الدَين .

دور المشاعة في الدولة الرقية :

لكن لماذا نجد في هذه الحال ، الى جانب الارقاء ، جمهورا من المواطنين الاحرار في المجتمع البابلي ؟ لقد كان هؤلاء يمثلون اعضاء المشاعات البدائية القديمة .

والواقع انه قبل قيام الدولة أسهم وجود اراض خصبـــة ترويها مياه الفيضانات في ولادة زراعة ذات نظام معقد ومحكـم للري . وكان ظهور مزارع يملكها سادة الارقاء ، وتقاسم الاراضي ومنشآت الري بين اصحاب تلك المزارع ، قمينين بإتلاف تلـــك المنشآت وبتخريب الزراعة ، نظرا الى ان الارقاء ما كانوا معنيين البتة بنتائج عملهم . لهذا ارتأت الحكومة انه من الانسب والاصلح الحفاظ على المشاعة القروية . لكن هذه المشاعة لم تعد هي نفس المشاعة الماضية التي كان اعضاؤها يجهلون الاستغلال . وانمـــا غدت ، في الظروف الجديدة ، موضع استغلال من قبل الدولة الرقية . فصار جزء كبير من المحصول يسلم للملك وللكهنة او يخصص لاستهلاك القوات العسكرية . وكان النظار الملكيـــون يسهرون باستمرار على صيانة نظام الري ذاك ، وكذلك على إجبار اعضاء المشاعة على السداد المنتظم للرسوم والضرائب ، حارمين بالتالي المنتجين المباشرين من اكبر حصة من الخيرات التـــي ينتجونها .

وكان الوضع مشابها للغاية في سائر ممالك العهد القديم الاستبدادية : مصر ، الصين ، الهند ، ايران ، امبراطورية طوانتيسويو في اميركا ، الخ .

لكن على الرغم من ان الدولة الرقية وجدت انه من صالحها ان تحافظ على المشاعة القروية ، راحت تعمل على تفكيكها وتهديمها تدريجيا. فقد كان العرش يحوز اراضي عقارية شاسعة يعمل على توسيعها باستمرار على حساب الاراضي المشاعية . وكان العاهل ، تعزيزا منه لقاعدته الاجتماعية ، يوزع اراضي لا يستهان بها على بعض مالكي الارقاء من بطانته ، وكذلك على الموظفين والعسكريين والمعابد . وكان يأخذ تلك الاراضي من ممتلكاته الخاصة او يصادرها من المشاعات . اضف الى ذلك ان المشاعة كانت قيد انحلال متواصل بفعل اغتناء بعض اعضائها واملاق بعضهم الآخر .

تطور القوى الانتاجية في امبراطوريات آسيا وافريقيا القديمة :

واصلت القوى الانتاجية في أقدم الامبراطوريات الآسيوية والافريقية تطورها . ففي الزراعة المصرية طردت آلات الحراثة المعدنية شيئا فشيئا الادوات الحجرية . وفي العهد المعروف باسم الامبراطورية الوسطى ، شهدت الصناعة اليدوية والتجارة نهوضا سريعا . وكانت الصناعة اليدوية آنئذ وقفا ، بوجه العموم ، على المواطنين الاحرار ، ولكن في العهد التالي (الامبراطورية الجديدة) ضمت المشاغل والمحترفات ، الى جانب المواطنين المصريين ، عددا كبيرا من الارقاء . وتضاعفت الاختصاصات الحرفية ؛ ومن ذلك ان لوحة جدارية في احد القبور تمثل مشاهد من عمل الحاكة ، والغزالين ، والدباغين ،

والنجارين ، والنحاسين ، والصهارين وسباكي المعادن . وحل النول الافقي ، الذي يتطلب تشغيله شخصين او ثلاثة اشخاص على الاقل ، محل النول العمودي الذي يستطيع تشغيله عامل واحد . ورأت النور ابتكارات جديدة : منفاخ الكور بالدواسة ، مقابض المحراث المتطورة ، صب التماثيل النحاسية الصغيرة بطريقة التفريغ . كذلك عرفت صناعة الزجاج نهوضا عظيما .

تطورت الصناعة اليدوية في اقطار آسيا وافريقيا الاخرى ايضا . من ذلك ان شرعة حمورابي تأتي بذكر مختلف انواع النقابات الحرفية . ويستدل من معطيات كتاب ميلاندرابراسنا ان الصناعة اليدوية في بكتريان كانت تضم عدة نقابات حرفية . ومنها نقابات الخزافين ، والدباغين ، والغزالين ، والسلالين ، وصانعي السلاح المختصين في الاقواس ، والحدادين ، وسباكي المعادن ، الخ .

والى جانب الادوات البسيطة ظهرت الاجهزة الآلية الاولى . وكانت في بعض الاحيان على درجة ملموسة من التعقيد . ففي مصر ، على وجه الخصوص ، اخترعت رافعات ذات بكرات لرفع الكتل الصخرية الهائلة لبناء الاهرامات . وعلى عاتق الارقاء المشاركين في الانتاج الحرفي كانت تقع ، بطبيعة الحال ، الاشغال المضنكة والخطرة .

ظهرت منشآت الري منذ عهد المشاعة البدائية . لكن طرأ عليها تحسن مرموق في الامبراطوريات الرقية الآسيوية والافريقية ، وعمت وانتشرت بفضل استعمال ادوات وتقنيات مستحدثة . ففي الاورارتو ، على سبيل المثال ، ما امكن البدء بحفر اقنية في الارض الصخرية الا مع اكتشاف الادوات الحديدية . وكان مجمّع أسوان على النيل واحدة من اروع منشآت العالم القديم .

وأفضى تطور التجارة عن طريق البحر الى تحسين المنشآت البحرية . وطرأ تحسن مماثل على صناعة الاسلحة .

تطور علاقات المال ـ البضائع :

منذ عهد المشاعة البدائية ادى تقدم المبادلات الى ظهور معادل عام للبضائع ، اي الى سلع تمكن مقايضتها بأي سلع اخرى . وقد نهض بهذا الدور في بادىء الامر اهم المنتجات : الماشية ، الفرو، الجلود ، العاج ، الخ . اما في المجتمعات الرقية فقد انتقل ذلك الدور تدريجيا الى المعادن ، الى الحديد والنحاس اولا ، ثم الى الذهب ، وعلى الاخص الى الفضة . وصارت الفضة المعادل العام، وسيلة التداول الشائعة ، بضاعة البضائع ، اذا جاز التعبير .

وظهرت طائفة الباعة والتجار ، المتخصصة في التبادل والمستحوذة على حصة من القيم .

على ذلك النحو ، تم التقسيم الاجتماعي الثالث للعمل .

واكتسى الانتاج بطابع سوقي ، اي انه لم يعد مخصصا للاستهلاك المباشر من قبل المنتجين بقدر ما أمسى مخصصا للتبادل .

نشوء المدن :

ان الانتاج الحرفي هو ، بطبيعته بالذات ، انتاج سوقي . وبعبارة اخرى ، يخصص الصانع الحرفي قسما كبيرا من منتجاته لا لتلبية حاجاته الشخصية ، وانما للبيع . من الطبيعي اذن ان يعقد الباعة والتجار ، الذين كانوا يلعبون دور الوسطاء في عمليات البيع والشراء ، صلات وثيقة بالصناع اليدويين والحرفيين . وقد تمخضت هذه الواقعة عن ظهور تجمعات سكانية من الحرفيين والباعة ، هي المدن .

كانت المدن تنبت ، في غالب الاحايين ، في موضع المحطات

القبلية القديمة ، وفي المراكز الحضرية ، بجانب التحصينات ومنابع الماء (بما فيها المنابع العلاجية) ، وعند تقاطع طرق القوافل الكبرى . ومن ذلك ان مدينة مكة رأت النور ، في نهاية الالف الثانية ق.م ، قرب ينبوع للماء له خواص علاجية ، كان يتدفق عليه الحجاج باستمرار لتبجيل **الحجر الاسود** المقدس .

نهضة العلاقات التجارية :

يوم كان الناس يجهلون قوة البخار والكهرباء ، ويوم كان استخدام حيوانات الجر محدودا ، كانت ارخص وسيلة من وسائل المواصلات وأكثرها عملية هي العوامات والزوارق والمراكب الشراعية . من الطبيعي اذن ان أولى المدن والبلدان التي احتلت مكانها في مدار التجارة العالمية كانت تلك الواقعة على ضفاف الانهار وعلى شاطىء البحر . وطفقت التجارة، بما فيها السمسرة، تلعب دورا متعاظم الاهمية باستمرار ، وتحولت في العديد من المدن والبلدان الى واحد من المصادر الاولى لتراكم الثروات . وفي العالم القديم ، كان الفينيقيون (سكان المدن ـ الدول التي نبتت في الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط في الالف الثالثة ق.م) يتمتعون بشهرة ذائعة وصادقة بكونهم تجارا ذوي بصيرة وحيلة وجشع . وكانت مراكبهم تجوب البحر الابيض المتوسط من أقصاه الى أقصاه ، عارضة على المشترين تشكيلة واسعة من البضائع ، بما فيها اليد العاملة المسترقة .

وفي العهد نفسه تقريبا ظهرت الطرق التجارية التي تربط بين بلدان آسيا وافريقيا برا . وكانت طرق القوافل تلك تمتد احيانا على طول آلاف الكيلومترات .

بازدهار العلاقات السوقية ونمو التجارة تسارع تراكم الثروات في يدي أقلية ، وإملاق الغالبية . وانتهز الاغنياء صعوبة

وضع صغار الفلاحين والحرفيين ، فطفقوا يقرضونهـــــم مالا ومصادر المعاش الاخرى (اغذية ، ادوات عمل ، الخ) بفائدة ربوية. وكثيرا ما كان المدين يجد نفسه، اما لانه يعيل اسرة كبيرة التعداد، وإما عقب كوارث طبيعية او مرض او غزو مسلح ، في وضــــع يتعذر معه عليه سداد دينه والفوائد . فكان يسقط نهائيا فــــي قبضة المرابي . وفي آخر المطاف ، كان المفلس او ابناؤه يصيرون أرقاء للدائن ، اي يتحولون من طبقة اجتماعية (طبقة المواطنين الاحرار) الى طبقة اخرى (طبقة الارقاء) . على هذا النحو ، عجل تقدم العلاقات السوقية بعملية التمايز المادي والاجتماعي .

صراع الطبقات ودوره :

ان تاريخ المجتمع الرقي برمته يغص بالمعارك بين الطبقات ، وعلى الاخص بالمنازعات بين الارقاء ومالكيهم . وما صراع الطبقات الا نتيجة استقطاب وتناقض المصالح الاقتصادية وغير الاقتصادية للطبقات . وتتحدد المصالح الطبقية بدورها بالوضع الذي تشغله الطبقة المعنية في نظام الانتاج الاجتماعي. وكان الارقاء المحرومون من الملكية والخاضعون لاستغلال لا نظير له في التاريخ معنيين بالاطاحة بنمط الانتاج وبالنظام السياسي اللذين ألقيا بهم فـــي وضع العبودية ، واللذين كان السادة يسهرون ، على العكس ، على حمايتهما واستمرارهما . على هذا النحو كان الارقاء يشكلون طبقة ثورية ، وان يكن وعيهم لما يستيقظ بعد .

كان أبرز شكل لصراع الارقاء الطبقي وألفته للانتباه فـــي الامبراطوريات الآسيوية والافريقية في العصور القديمة هو شكل الانتفاضات المسلحة . ومن ذلك انــــه اندلعت ، في نهايـــــة الامبراطورية الوسطى في مصر ، ثورة شعبية عارمة شارك فيها ،

الى جانب الارقاء ، العديد من الحرفيين والفلاحين المفلسين .

ومرارا وتكرارا اندلعت في الصين الغابرة انتفاضات قمعتها في كل مرة الطبقات الحاكمة بوحشية .

ولئن كان مآل تلك الانتفاضات الى الفشل والهزيمة ، فهذا لان القائمين بها كان ينقصهم التنظيم والانضباط الضروريان ؛ فقد كانوا يشتتون قواهم ولا يفلحون في الصمود امام القوات الجيدة التسليح للطبقة الحاكمة . وفي الواقع ، لم تكن الشروط العملية لالغاء استغلال الانسان للانسان في ذلك العصر متوفرة ، وما كان يمكن ان تتوفر . لكن هبّات الفلاحين والحرفيين والارقاء كانت تلعب ، على الرغم من الاندحار والهزيمة ، دورا كبيرا ، لانها كانت بمثابة ضربات تسدد الى الاشكال البالية لعلاقات الانتاج . ومن ثم ، فقد كانت تحفز على ولادة أشكال جديدة اكثر تقدمية .

لقد كانت تلك الهبّات بمثابة تجارب اولى لنضال الشعب في سبيل انعتاقه ؛ وكانت ترسي أسس ذلك النضال وتوطد تقاليده. وحتى النجاحات العارضة التي كان ينتزعها المتمردون كانت تفضي الى بعض التحسن في وضع المنتجين المباشرين ، مما كان يسهم بدوره في تطور القوى الانتاجية .

ايديولوجيا المجتمعات الرقية القديمة وحضارتها :

قبل ظهور الرق ، اي في عهد المشاعة البدائية ، كانت أبرز مظاهر الايديولوجيا البشرية وعي الواجبات تجاه الجماعة ، واحساسا عميقا بالجماعية ، واحترام العمل . ومنذ ذلك العهد تلبست تلك المثُل العليا (شأن سائر مثل البدائيين العليا) طابعا دينيا . وترتيبا عليه ، سادت رويدا رويدا بين جمهرة الآلهة التي لا تقع تحت حصر نفس المساواة التي كانت سائدة بين الناس . ومن جهة اخرى ، كانت آلهة كل فئة بشرية (قبيلة ، عشيرة)

رفيقة وعطوفة من حيث المبدأ تجاه جميع اعضاء المشاعة على حد سواء .

وبانشطار المجتمع الى طبقات متصارعة ظهرت ايديولوجيتان، بل حضارتان متوازيتان ومتناحرتان : ايديولوجيا المضطهِدين وحضارتهم وايديولوجيا المضطهَدين وحضارتهم . ويشكل التعزز التدريجي لذلك التعارض أبرز سمة في الحياة الايديولوجية لامبراطوريات العهد القديم الرقية . وقد تجلت تلك السمة في كل مجال ومضمار : في الفن ، في الفلسفة ، في الاخلاق . لكن الميدان الذي برزت فيه اكثر ما برزت كان ميدان الدين ، لان هذا العنصر من عناصر البنية الفوقية كان عهدئذ عاما وشاملا للجميع.

وطردا مع توطد مواقع الطبقة السائدة وانعزالها عن سواد الشعب ، بدأ يتجه الاختيار ضمن الجمهرة الغفيرة من الآلهة والارواح نحو عدد محدود نسبيا من الآلهة التي أسبغ الكهنة على عبادتها طابعا رسميا . وكقاعدة عامة ، ترافق تبلور الممالك الاستبدادية بتعزيز مواقع التوحيد . وكانت تلك العبادات الرسمية تحظى بدعم قوي من قبل الطبقة السائدة . لكن بصرف النظر عن تنوع الاشكال ، كانت الوظيفة الطبقية للاديان الرسمية واحدة على الدوام : ارغام الفعَلة على الطاعة وترهيبهم بالعقوبات الالهية في هذه الدنيا او في الآخرة . وبصورة او بأخرى ، كان الدين الرسمي يؤله سلطان المستغِلين والاقوياء .

غالبا ما كان الشعب يقف عاجزا عن فهم العبادات الرسمية. ولم يكن من النادر ، على كل حال ، ان تكون ذات اصل اجنبي . وهذا ما كان يجعل التصورات الدينية للارقاء وصغار الفلاحين والحرفيين تختلف عن الديانة الرسمية المفروضة من قبل الكهنة . وكانت تلك الاختلافات تتخذ احيانا طابعا شديد البروز . ففي أرمينيا الغابرة على وجه التعيين ، حيث كان النبلاء والامراء قد اعتنقوا العبادات الاغريقية ، أصر الشعب بعناد على التمسك

بمعتقداته القديمة ؛ وكان يعبد بوجه خاص آرا الجميل ، إلـــه الطبيعة الذي يموت ويبعث مع الفصول .

لنلق نظرة الآن على بعض المظاهر الاخـــرى للتعارض بين ايديولوجيا الشعب وايديولوجيا الطبقات المستغِلة .

فرويدا رويدا ولد في صفوف الطبقة السائدة عدم اكتراث في البداية ، ثم ازدراء ، وأخيرا احتقار للعمل اليدوي الـــذي بات يعتبر نشاطا لا يليق بأهل الحسب والنسب . لكن الغالبيــة الساحقة من شعوب الامبراطوريات الرقية بقيت تكنّ احترامــا عميقا للكدح الجسماني ، ولا تتوانى احيانا عن تقديس بعـــض مظاهر العمل .

ولّدت الملكية الخاصة وتراكم الثروات الفردية روح الانانية والأثرة في الطبقات السائدة . وشرعت مصالح الفرد تطغى على مصالح الامة والوطن . وغير هذه الحـــال كانت حال المواطنين العاديين : فالشغيلة البسطاء ، وعلى الاخص الفلاحون ، الذين كانوا ما يزالون مشدودين الى مخلفات العلاقات المشاعية ومعتادين على أداء الكثير من الاشغال جماعيا ، كانوا على استعداد دائـــم للتضحية بأنفسهم في سبيل الصالح العام ، وكانوا يقدمـــون مصالح الجماعة والوطن على آلامهم وأفراحهم .

تقدم المعرفة . العناصر الاولى للمادية والجدل (١) :

أشرنا آنفا الى ان الدين كان الشكل العام الشامل لتجلـــي

---

١ ـ المادية : نزعة فلسفية ، أطروحتها الرئيسية الاعتراف بالطابع الاولي للمادة باعتبارها اساس كل ما هو موجود في العالم . اما الوعي والروح والافكار =

الوعي البشري في دول العهد القديم الرقية . وعليه ، فقد كان تصور الطبيعة والمجتمع مثالي النزعة يومئذ . فجميع الظاهرات الطبيعية وجميع مشاريع الانسان وجميع أحداث الحياة الاجتماعية كانت تفسر بتدخل قوى خارقة للطبيعة (وكان ذلك مفهوما لانه ما كان في مقدور الانسان ان يجد لها تعليلا علميا) . لكن تقدم القوى الانتاجية وتطور طرائق العمل ما كانا ممكنين الا بتراكم المعارف الموضوعية . ومن جهة اخرى ، اتاح ظهور فائض النتاج للناس ان يخصصوا جزءا من وقتهم للعمل الفكري ، ولدراسة قوانين الطبيعة . وبذلك تحولت فيضانات النيل من قوى خارقة للطبيعة الى ظاهرة معتادة ومألوفة بالنسبةالى قدامى المصريين . ولئن استمر المصريون في توقير التمساح وتأليهه – وهو روح النهر الكبير – فقد تعلموا كيف يحسبون بدقة مواقيت الفيضان ، وكيف يقدرون تقديرا صائبا الى حد بعيد كمية الطمي التي سيسوقها ، والمساحة التقريبية للاراضي التي ستروبها المياه .

لقد ولّد تراكم المعارف العملية والموضوعية تصورات ونظريات فلسفية جديدة اكدت ان المادة ، لا الارواح ولا الآلهة ، هي الموجودة في اساس كل شيء . وهكذا ذكرت اساطير مصر القديمة ان الهواء متواجد في كل شيء ، وأن العالم في مجمله يستمد أصله من عنصر مادي هو الماء . وقبل بداية العهد الميلادي بحقبة لا بأس بها ، وجد في الهند الغابرة فلاسفة عارضوا الديانة الرسمية (البراهمانية) ورأوا في جميع الظاهرات الطبيعية نتيجة

= فتعتبرها المادية نتاجا للمادة ، اي تعطيها دورا ثانويا .وترتكز المادية الى معطيات العلم .

اما الجدل فهو علم التطور ، علم الحركة . والجدل الماركسي هو علم القوانين العامة لارتقاء الطبيعة والمجتمع والفكر البشري .

تراكب اربعة عناصر مادية : الماء ، التراب ، النار والهواء .

العلم والفن :

أدى تحسن الانتاج بذاته اذن الى تحسن تقنيات العمل . وهذا الى حد طفقت معه هذه التقنيات تتحول الى معارف علمية. فمن ضرورة حساب كمية الحبوب المحصودة والمبذورة وقياس مساحة الحقول او أطوال الاقنية وتوقع الجفاف و فيضانات المياه ومعرفة مرونة البرونز وتركيبه ، الخ ، ولد علم الحساب والهندسة والفلك ، وكذلك المبادىء الاولى للفيزياء والكيمياء . وظهرت ايضا الكتابة الخطية (الرمزية او الابجدية) التي تؤدي جميع ألفاظ الجملة ، وذلك بخلاف التصاوير اللغوية البدائية التي ما كانت تعطي سوى فكرة مبهمة عن النص المؤدى . اي انه بات في المستطاع مذذاك فصاعدا تدوين القوانين التي تحمي مصالح الطبقة السائدة وتثبيتها كتابة . كما صار في المستطاع تسجيل كميات البضائع المشتراة والمباعة ، والموجودات التي بحوزة هذا المعبد او ذاك وهذا الفرد او ذاك ، والحصول كذلك على معطيات جديرة بالتصديق عن قوى امبراطورية عدوة ، الخ. واضح اذن ان ظهور الكتابة الخطية كان مشروطا بحاجات الدولة الرقية بالذات .

وأسهم ظهور الكتابة في امبراطوريات آسيا وافريقيا القديمة بدوره في ازدهار الآداب . وقد خلف لنا الكتاب المصريون ، بالفعل ، جملة من الاعمال الادبية التي تنتمي الى أنواع شتى : السيَر ، القصائد الغنائية ، الحكم ، قصص الرحلات ، الخ . وكما في جميع تظاهرات الحضارة القديمة ، كان الحس بالتناحر الطبقي جليا بارزا في ذلك النتاج . ففي واحدة من اوراق البردي وصف لأمَة خائنة التهمها التمساح عقابا لها على عدم وفائها

لسيدتها . لكننا نستشف فيه ايضا أصداء استيـاء المستغَلين وتذمرهم . ومن ذلك ، هذه الاغنية من اغاني مصر القديمة :

أواجب علينا فعلا ان نحمل
طوال النهار على ظهورنا الشعير
والقمح الابيض ؟
الاهراءات مكتظة من الان ،
وجبال الحبوب طافحة ...
لكننا ابدا مرغمون على حمل الاكياس ...

لقد كان لمنجزات شعوب آسيا وافريقيا القديمة في ميادين الانتاج والعلم والآداب والفنون تأثير هائل على التقدم العام للحضارة الانسانية ؛ ويصح ذلك بوجه خاص بالنسبة الى بلدان حوض البحر الابيض المتوسط . وقد أسهم الإرث الافريقي ــ الآسيوي ، على وجه التعيين ، عظيم الاسهام في تطور القوى الانتاجية في مجتمعات اليونان وروما الرقية .

الامبراطوريات الرقية الافريقية :

قام العديد من الدول الرقية في القارة الافريقية المترامية الاطراف . وسوف نذكر منها مصر ، مملكة قوص ، قرطاجة ، نوميديا . ومصر وقوص تتقدمان في الاهمية على كل ما عداهما لانهما تبلورتا ، بخلاف قرطاجة ، بعيدا عن كل تأثير غير افريقي.

مصر القديمة :

كان نشوء الدولة المصرية الاستبدادية في أواخر الالف الرابعة ق.م واحدة من اهم المراحل في تاريخ البشرية القديم . وتسمى تلك الحقبة بالامبراطورية القديمة. وقد خاض المصريون بجيوشهم الجرارة حروبا منظمة لغزو شبه جزيرة سيناء والقسم الشمالي

من النوبة .

لقد اتاحت المركزة والادارة امكانية تحسين وتوسيع نظام الري الذي كان يشكل قاعدة الزراعة في البلاد . كذلك كان القنص والصيد يلعبان دورا هاما بين سائر النشاطات . وكانت تربية الحيوان ايضا مزدهرة ، وعلى الاخص في دلتا النيل حيث كانت توجد مراع شاسعة .

كانت الخلية الاقتصادية والاجتماعية الاولى في مصر المشاعة القروية التي راح يستغلها أبشع استغلال مالكو الارقاء . وفي زمن لاحق ، عرفت المستثمرات الزراعية العائدة ملكيتها الى المعابد انتشارا واسعا . وكما في بلاد ما بين النهرين ، شرعت المشاعة القروية بالتحلل عقب انقسامها السافر الى طبقات واستيلاء مالكي الارقاء والكهنة والمرابين على الاراضي المشاعية . وما كان وضع الفلاحين الاحرار الملقين يتميز كثيرا عن وضع الارقاء .

كان الارقاء اليد العاملة الرئيسية في مزارع العرش والمعابد، وكذلك في الملكيات العقارية الكبيرة العائدة الى مالكي الارقاء وكبار الموظفين . وكان عددهم في تضاعف مستمر . وذودا عن مصالح طبقة مالكي الارقاء كان الفراعنة يخوضون حروبهم العديدة بغية الاستيلاء على أرقاء جدد وماشية وثروات اخرى .

وكانت الملكية المصرية ترى رسالتها الاولى في توطيد سلطة مالكي الارقاء وتعزيزها . وقد اقامت جهازا اداريا بالغ المركزة . وكانت اموال طائلة تتدفق على الخزينة الملكية . وعلاوة على غنائم الحرب ، كانت المصادر الرئيسية لمداخيل الدولة هي الضرائب التي يجبيها من السكان سلك غفير من الموظفين . وكانت المحاكم تخدم هي الاخرى مصالح مالكي الارقاء . اما في الاقاليم فكان نواب الملك هم الذين يجمعون عادة بين وظائف الحكام وقضاة التاج . وكان قاضي القضاة المساعد الرئيسي للفرعون في ادارة البلاد . اما الفرعون نفسه ، فقد كان الناس يرون فيه حامل

القضاء الاعلى ، «الإلهي» . وتخليدا للفراعنة ولكل طبقة مالكي العبيد ، شيدت اهرامات هائلة بجهود الشعب والارقاء .

ولبثت بنية الدولة على ما هي عليه تقريبا في زمن لاحق ، في عهد الامبراطوريتين الوسطى والجديدة .

امبراطورية قوص :

بالرغم من ان هذه الدولة رأت النور في فترة ما بين القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد ، فان الامبراطورية القوصية لم تعرف الازدهار الا في القرن الثامن قبل الميلاد . وقد ظل القوصيون حقبة مديدة من الزمن تابعين لمصر . لكنهم فازوا باستقلالهم في القرن الثامن ق.م ، وطفقوا بدورهم يوجهون حملات الفتح نحو الشمال ، اي نحو اراضي ملوكهم السابقين . وفي حوالي العام ٧٢٥ ق.م أخضع الملك بيانخي مصر لنيره . عندئذ امتدت المملكة القوصية من البحر الابيض المتوسط الى اثيوبيا وأوغندا الحديثتين . ولحقبة وجيزة من الزمن صارت قوص قوة عظمى . لكن الامبراطورية كانت مكرهة على خوض حروب شبه متواصلة . وكان في عداد اعدائها المصريون ، والفاتحون الآشوريون ، وأخيرا الرومان . وغالبا ما حققت الجيوش القوصية انتصارات باهرة . بل انها هزمت ذات مرة الفيالق الخيالة الرومانية . لكن الصراع المتواصل ضد العدو الخارجي أنهك قوى الامبراطورية ، فتداعت وانهارت في آخر الامر في القرن الثالث بعد الميلاد .

رأت الحضارة القوصية النور ، نظير المصرية ، على ضفاف النيل الخصيبة . لكن نظرا الى الشروط الطبيعية غير الموائمة ، والى غارات البدو المتواصلة ، لم تنشىء شبكات ري واسعة ، كما في مصر وبابل وبعض الدول الرقية الاخرى في العصور القديمة.

وهذا ما جعل القنص وتربية الحيوان يحافظان في قوص على اهمية اقتصادية بالغة. وتشهد العينات الرائعة من الآنية الخزفية المحلية وأدوات التدبير المنزلي الخشبية والذهبية والنحاسية والعاجية والجلدية التي أماطت اللثام عنها الحفريات ، تشهد على مستوى متقدم للصناعة اليدوية . وقد خلف لنا المجتمع القوصي نماذج بديعة من حضارته في شكل آثار فنية تشكيلية ومعمارية. وكانت كتابة القوصيين هيروغليفية . وينبغي ان نلاحظ اصلا ان ثقافة الامبراطورية القوصية كانت تحمل بصمات التأثير المصري.

وعرف الرق فيها انتشارا واسعا . وكما في مصر ، كانت المصادر الرئيسية لتجنيد اليد العاملة المسترقة هي الحروب ، والعبودية بسبب الديون ، والتجارة . وكانت علاقات قوص التجارية واسعة التشعب وتتجاوز من بعيد اطار القارةالافريقية.

الدول الرقية في اراضي الاتحاد السوفياتي :

وجدت عدة امبراطوريات رقية قديمة في الاقاليم التي يتألف منها اليوم الاتحاد السوفياتي . وكان تقدم القوى الانتاجية هنا ، وظهور فائض النتاج وتزايده ، والانقسام الى طبقات ، على صلة وثيقة بصهر الحديد بوجه خاص . والدليل على ذلك تقدمه المعطيات الاثرية المجتناة من بلاد غبر القفقاس وآسيا الوسطى والساحل الشمالي للبحر الاسود . وسوف نذكر ، من بين تلك الدول ، الاورارتو ، ومملكة أرمينيا ، وايبيريا ، وكولخيدا ، وألبانيا القديمة ، وخوارزم ، وصوجيان ، وبكتريان ، وممالك كوشان والبوسفور .

الاورارتو :

تعود المعلومات الاولى عن اورارتو الى القرن الرابع عشر ق.م ، ولكن يبدو ان الامر لم يتجاوز عهدئذ اتحادا للقبائل . وللكلام عن اورارتو كأمبراطورية متكونة ، فلا بد من انتظار بداية الالف الاولى ق.م . وقد تشكلت المملكة الاورارتية في البدء حول بحيرة فان ، لكنها غطت فيما بعد مساحة شاسعة . وكان قباطنتها يشنون حملاتهم ابتداء من شاطئ البحر الابيض المتوسط في الجنوب الغربي وحتى ضفاف دجلة في الجنوب الشرقي . وفي الشمال ضم الاورارتو اليه مجموعة من الاقاليم التي يتكون منها الان عبر القفقاس السوفياتي . وكانت الاراضي الجبلية التي احتلها الاورارتو أقل مواءمة للزراعة من اراضي بابل ومصر على سبيل المثال . ولم يكن نشوء زراعة مروية وتطورها ممكنين هنا الا في الوهاد والوديان للاستفادة من مياه سيول الجبال . ولذا بقيت تربية الحيوان لحقبة مديدة من الزمن تمثل النشاط الرئيسي . واستعمال الحديد هو وحده الذي اتاح امكانية شق قنوات في الارض الصخرية ، مما ترتب عليه نهوض سريع للزراعة في المناطق الجبلية .

لكن بالرغم من تطور العلاقات الرقية لبثت مخلفات المشاعة البدائية على قيد الوجود . وكان الرق أبويا في المقام الاول ؛ وكان قسم من الارقاء ملكا جماعيا للمشاعة . وكان سواد السكان يتألف من الفلاحين المحاربين الاحرار . وبخلاف الوضع في الممالك الاستبدادية ، لم يكن لدى التاج مزارع واسعة ؛ فالسلطة الملكية في الاورارتو لم تبلغ مستوى الاستبداد .

عرف الاورارتو اعظم ازدهار له منذ نهاية القرن التاسع ق.م وحتى الثلاثينات من القرن الثامن ق.م . فقد غدا الاورارتو

يومئذ واحدا من اهم المراكز العدانية (١) العالمية . وبفضل الجهود المتضافرة للارقاء والفلاحين الاحرار شقت قنوات كبيرة وشيدت مدن وحصون . وعرفت الحضارة الاورارتية ذروة تألقها . وقد وصل صناع السلاح والخزافون بوجه خاص الى مستوى منقطع النظير من الاستاذية . وتشهد الاكتشافات الاثرية على رفعة مستوى الثقافة . وقد استعار الاورارتو من آشور الكتابة المسمارية وكيّفها مع حاجاته .

أدت الحروب الضارية ضد آشور ، والضغط المتواصل من جانب قبائل الشمال السقيتية ، وفتن الارقاء ، والنزعة الانفصالية للكثير من القبائل داخل البلاد ، ادت بالمملكة الى الافول في البدء (القرن السابع ق.م) ، ثم الى الانهيار التام (القرن السادس ق.م) .

كان لمملكة اورارتو وحضارتها تأثير هائل على مصير جميع شعوب عبر القفقاس . وفي اطار تلك الامبراطورية المترامية الاطراف ، انصهرت القبائل والعشائر في كيانات إثنية اعظم اهمية وأكبر حجما (أقوام وشعوب) . وفي عهد الاورارتو على وجه التعيين بدأ يتطور شعبان من اكثر شعوب عبر القفقاس تعدادا : الارمن والجيورجيون .

ارمينيا :

بفاصل عدة قرون قامت ارمينيا القديمة لتنوب مناب الاورارتو . ويمكن ان تصنف تلك الدولة ، التي تكونت في القرن الثاني ق.م ، بحق في عداد الممالك المستبدة من حيث

---

١ ـ نسبة الى العِدانة : صناعة استخراج المعادن وتنقيتها . «م»

بنيتها . وقد تدعمت ارمينيا القديمة وأدركت مستوى رفيعا من القوة الاقتصادية والسياسية في عهد أرساك الاول وتغران الثاني اللذين حكما في القرنين الثاني والاول قبل الميلاد . وكـــان الاستغلال العديم الشفقة لليد العاملة المسترقة ، وكذلك لصغار الفلاحين وأحرار الحرفيين ، مصدر ازدهار الحضارة الارمنيــة القديمة . وقد شيدت في البلاد مدن كبيرة وحصــون منيعة ، وشقت فيها طرقات ومدت جسور ، ووضعت الثروات المنجمية موضع استغلال . وكانت ارمينيا تتاجر على نطـاق واسع مع ايران وآسيا الصغرى وسورية ومصر وبلدان اخرى .

وقد أصابت الحضارة فيها شأوا بعيدا . وبالرغم من تأثير الهيلينية حافظ الشعر الملحمي والمسرح والرسم والنحت علـــى تقاليدها واصالتها . وفي العام ٦٩ ق.م سقطت ارمينيا تحت نير روما ، لكن السيطرة اللاتينية لم تدم طويلا ، واتسمت الى حد كبير بطابع عارض .

ايبيريا وكولخيدا :

ان مؤسسي هاتين المملكتين الرقيتين من ممالك عبر القفقاس هم أسلاف الجيورجيين الحاليين . وكانت مملكة كولخيدا تمتد على الساحل الشرقي للبحر الاسود ، بينما كانت ايبيريا تحتــل القسم الاوسط ، الجبلي ، من عبر القفقاس . وكانت الدولتان من وجهة النظر السياسية مملكتين رقيتين ، ولكن مع محافظتهما على مخلفات ضاربة الجذور من العلاقات المشاعية والعشيرية . وفي العام ٦٥ ق.م غزا الرومان كلا البلدين . لكن سعة نطـاق المقاومة الشعبية ارغمت الفاتحين على ان يتركــــوا للايبيريين حكومتهم القومية . وكان المظهر الوحيد للتبعية تجاه رومـــا

اضطرار الملوك الايبيريين الى حمل لقب «حلفاء الامبراطورية» . اما فيما يتعلق بكولخيدا والاقاليم المجاورة ، فقد تشكلت فيها عدة امارات صغيرة تابعة لروما .

وتبيح لنا الحفريات الاثرية ومعطيات اخرى ان نؤكد ان الدولتين ادركتا مستوى رفيعا من الحضارة . وكانت عاصمة كولخيدا ، مدينة متسخيطة ، قد شيدت من الصخر بصورة رئيسية ، فكانت المباني فيها تتألف من بلاطات هائلة الحجم قصت ونحتت على نحو هندسي دقيق . وكان الحرفيون ، من خزافين وصانعي سلاح وعدانين ونحاتي صخور وصاغة مجوهرات الخ ، على درجة رفيعة ونادرة من البراعة والفن .

ألبانيا القديمة :

في القسم الشمالي من جمهورية اذربيجان الاشتراكية السوفياتية الحالية تكونت في حوالي القرن الرابع ق.م مملكة ألبانيا (١) .

وكما في سائر دول عبر القفقاس ، كانت المخلفات المشاعية فيها في منتهى الحيوية .

كانت نشاطات الالبان الرئيسية تربية الحيوان والزراعة . وتطورت بالتوازي معهما العدانة التي ادركت مستوى رفيعا . وقد قام هناك واحد من المراكز العالمية لانتاج الحديد والنحاس والبرونز . وكان الحرفيون يصنعون من هذه المعادن اسلحة وأدوات زينة ، وكذلك تماثيل صغيرة وأحزمة .

---

١ ـ ينبغي ألا نخلط بين هذا البلد وبين البانيا الحالية الواقعة في شبه جزيرة البلقان . فالامر لا يعدو هنا ان يكون امر اتفاق في الاسماء .

وأسهم وجود كتابة ألبانية في ازدهار ادب باللغة المحكية .

وكان على ألبانيا ، شأنها شأن سائر جيرانها ، ان تخوض نضالا مرا ضد الغزاة الرومان . وكانت المملكة تعد من وجهة النظر الشكلية خاضعة لروما ، وقد تلقت على غرار ايبيريا لقب «البلد الحليف» . لكن تلك التبعية كانت ذات طابع نسبي في الواقع ، وقد حافظت ألبانيا على استقلالها لاكثر من قرنين من الزمن ، الى ان طوعها وضمها الفرس اليهم في مطلع القرن الثالث ق.م.

الدول الرقية في الساحل الشمالي للبحر الاسود :

كانت سهوب ساحل البحر الاسود مأهولة بالعديد من القبائل البدوية والحضرية . وقد شرع هنا النظام العشيري بالانحلال في الفترة ما بين القرنين السابع والاول ق.م. وقد ظهرت عندئذ اتحادات قبلية تثبتت وتوطدت في اطارها العناصر الاولى للدولة . وفي الحقبة نفسها نبتت في ساحل البحر الاسود مدن أسسها معمرون قادمون من اليونان . وقد تكونت سلسلة كاملة من المدن ـ الجمهوريات الرقية : اولبيا ، تيراس ، شرسون ، الخ . والى جانبها رأت النور في القرن الخامس ق.م مملكة البوسفور التي كانت عاصمتها بانتيكابه . وقد لعبت القبائل الاهلية دورا كبيرا في تاريخها جنبا الى جنب معالمعمرين الاغريق.

ان اقليم مملكة البوسفور القديمة ما يزال مشهورا الى اليوم بخصوبة اراضيه . وكانت زراعته العالية المردود تنتج كميات كبيرة من القمح القابل للتسويق . ففي القرن الرابع ق.م كان البوسفور يصدر اكثر من ١٥٠٠٠ طن من الحنطة سنويا الى جمهورية اثينا وحدها . وكانت المملكة تصدر ايضا السمك

والجلود والارقاء . وبالمقابل ، كانت تستورد تشكيلة واسعة من البضائع من اليونان وآسيا الوسطى وجزر بحر ايجه .

كان البوسفور ملكية مطلقة تتركز فيها السلطة كلها بين يدي الملك . وقد افضى الشطط في استغلال اليد العاملة المسترقة وصغار الفلاحين الى ازدهار في الاقتصاد والثقافة في القرنين الرابع والثالث ق.م . وفي النصف الثاني من القرن الثاني وجدت المملكة نفسها تواجه أزمة حادة . وكان مصدر الخطر من الخارج عقب تأسيس امبراطورية سقيتية في القرم ، ومن الداخل ايضا بسبب تفاقم تذمر الارقاء وصغار المعمرين المستغَلين . وقد تمخضت الواقعة الاخيرة عن انتفاضة شعبية عارمة بقيادة سوماكوس . ولم تتمكن الطبقة الحاكمة من قمع التمرد ومعاقبة المشاركين فيه بقسوة ووحشية الا بفضل التدخل الاجنبي . ونتيجة لما طرأ على وضع البوسفور من ضعف ووهن ، سقط اولا تحت سيطرة البونت (١) ، ثم تحت الهيمنة الرومانية . وفي عام ٣٧٠ كانت التناقضات الاجتماعية قد نخرته نخرا ما أمكنه معه ان يصمد لغزوة بربرية جديدة ، فانهار تماما .

الامبراطوريات الرقية في آسيا الوسطى وقازاخستان :

ان الاقليم الحالي لجمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية

---

١ ـ البونت مملكة قديمة من ممالك آسيا الصغرى ، كانت تقع على البونت ـ اوكسان ، وهو الاسم القديم للبحر الاسود . اعلن الفرس استقلالها في عام ٣٠١ ق.م ، واستولى عليها الرومان في عام ٦٣ ق.م بعد ان خاضت ضدهم نضالا ضاريا . «م»

والقسم الجنوبي من جمهورية قازاخستان السوفياتيةالاشتراكية كانا متوزعين ، في النصف الاول من الالف الاولى ق.م ، بين قبائل رعوية وزراعية عديدة . وقد تطورت الزراعة في أحواض أنهار سير داريا وآمو داريا وزيرافشان ، وكذلك على شطآن بحر الآرال . وكانت قد شقت هنا قبل الميلاد بألفين وخمسمئة عام قنوات للري بطول ٢٠٠ كيلومتر احيانا . وفي حوالي القرنين السابع والسادس ق.م رأت النور اولى الممالك الرقية : بكتريان ، صوجيان ، وخوارزم . وكان على شعوب هذه البلدان ان تخوض طوال قرون نضالا حتى الموت ضد الغزاة الاجانب : الفرس ، الاغريق ، المقدونيين ، الرومان .

وفي أواخر الالف الاولى ق.م ظهرت امبراطورية كوشان الكبرى التي ضمت لا آسيا الوسطى السوفياتية بأسرها تقريبا فحسب ، بل ايضا قسما من الهند وافغانستان .

وقد أبدعت شعوب آسيا الوسطى حضارة رفيعة جدا . وتزيح الحفريات اللثام عن عينات رائعة للنحت والرسم وصياغة المجوهرات . كذلك يشتمل الشعر الشعبي على آيات وروائع من الفن . ولقد كان هذا الشعر في ما بعد مصدرا للالهام لا ينضب له معين ، غرف منه شعراء اصابوا شهرة كونية من أمثال الفردوسي ونافوي والسعدي .

٢ ـ خصائص النظام الرقي في اليونان القديمة

الحاضرة اليونانية :

كان شكل الملكية الرقية السائد يرتكز في اليونان الى

الحاضرة Polis ، اي المدينة ـ الدولة . وما كان مفهوما المشاعة والحاضرة يتميز واحدهما عن الآخر . ولكن لم يعد ذلك المفهوم يعني كما في السابق مشاعة أحرار الناس مثلما كانت الحال في الشرق ، بل بات يشير الى متحد لمالكي الارقاء . وكانت أقلية من اصحاب الامتيازات هي وحدها التي تتمتع بجميع الحقوق المدنية . اما الارقاء وبعض فئات السكان الاحرار فقد كانوا محرومين من كل حق . وفي عداد هؤلاء الاخيرين يجب ان نذكر في المقام الاول المهاجرين القادمين من اقاليم او حواضر اخرى .

كانت الحاضرة ، عادة ، مدينة مطوقة بأسوار وتضم ايضا المنطقة الملاصقة .

وقد فازت الجماهير الشعبية ، من كثرة ما ناضلت وكافحت، بإلغاء الرق الناجم عن الديون . وقد لعبت هذه الواقعة فيما بعد دورا اساسيا في تطور نظام الرق في اليونان القديمة .

لقد سلك تنظيم الحواضر نهجين اثنين ، اذا جاز التعبير . ففي بعض الحواضر قامت سلطة جمهرة مالكي الارقاء (وهو النظام المسمى بنظام الديموقراطية الرقية) . وفي الحواضر الاخرى ، تركزت قيادة الدولة بين يدي مجموعة صغيرة من الارستقراطيين . وما كان ينعم بالحقوق المدنية في الحالة الثانية سوى الاشخاص المالكين لاملاك عقارية .

وتقدم لنا اثينا نموذجا كلاسيكيا عن الدولة التي من الطراز الاول ؛ اما الشكل الثاني فيتجسد في اسبارطة .

دانت الدولة الاغريقية بازدهارها للشطط في استغلال الارقاء الذين زاد تعدادهم زيادة مرموقة بفضل الحروب والنخاسة . وعلى اساس من استغلال الارقاء ايضا قامت، نهضة الصناعة اليدوية والملاحة والتجارة والفن .

في أثينا قام عدد كبير من المشاغل والمحترفات التي يتولى العمل فيها أرقاء . وكانت غالبية هذه المشاريع ذات أحجام

متواضعة ، لكن عدد العاملين في بعض منها كان يتجاوز المئـــة احيانا . لكن حتى هذا الشكل البسيط من أشكال تعاون اليـــد العاملة رفع انتاجية العمل .

ان اقتصاد الحواضر الرقي ، الذي فتح في البداية آفاقـا رحبة امام تقدم القوى الانتاجية ، سرعان ما بدأ يتحول الى كابح لتطورها ، نظرا الى ان العبد لم تكن له من مصلحة البتة فـــي تحسين انتاجية عمله .

وقد عمق الانتشار الواسع للعلاقات الرقية في اليونان اولا، ثم في روما ، التعارض الذي كان اول ظهوره في ممالك آسيـا وافريقيا الاستبدادية بين العمل اليدوي والفكري .

كانت العلة الرئيسية لتلك الظاهرة الازدراء الذي راحت تنظر به الجماهير الواسعة من المواطنين الاحرار اليونانيين ، ثـــم الرومانيين ، الى كل شكل من أشكال العمل البدني .

وكان تكاثر أعداد الارقاء على نحو منقطع النظير يقضـــي بالافلاس والإملاق على صغار الفلاحين والحرفيين ، ويولّد بينهم النزعة الى اعتبار العمل البدني نشاطا غير لائق بالمواطن الحر وغير مشرف له .

وكان على الحواضر ان تذود عن نفسها مرارا وتكرارا ضـد الغزوات الاجنبية .

كانت أخطر هذه الغزوات تلك التي شنها الفرس في مفترق القرنين الخامس والرابع ق.م . لكن الامبراطورية الفارسيـة المترامية الاطراف ، الممتدة من الهند الى مصر ، هزمت شر هزيمة على أيدي الاغريق الذين كانوا يذودون عن حياض حريتهـــم واستقلالهم .

وأثناء الحروب الميدية ، غنمت الحواضر عددا هائلا من الاسرى الذين حولتهم الى أرقاء . وأفضى ذلك الى تقدم جديد للعلاقات الرقية على امتداد شبه جزيرة اليونان ، ولاسيما في آثينا حيث

كان للارقاء تأثير كبير .

وطرأ تحول عظيم على مصائر اليونان نتيجة لانهيار قـــوة الفرس البحرية في البحر الابيض المتوسط ، ولتدعم مراكـــز التجار اليونانيين في ذلـــك الحوض الواســـع . وكان النصر العسكري واحدا من الشروط التي تحكمت بازدهار الحواضر في الحقبة التالية .

بدأت الامارات الاولى لأزمة نظام المدن ــ الدول بالظهور عند مفترق القرنين الخامس والرابع ق.م.

وكانت علة رئيسية من علل الازمة تكمن في كـــون المبادلات الاقتصادية قد تجاوزت من بعيد حدود الحواضر . وينبغي ان نضيف الى تلك العلل ما اعتور الحواضر من ضعف وإنهاك على اثر حروب البيلوبونيـــز (٤٣١ ــ ٤٠٤ ق.م) التـــي نشبت بين البيلوبونيزيين وعلى رأسهم اسبارطة وبين الاتحاد الاثيني .

تبلور الدولة الرقية المركزة :

تواقتت مرحلة ضعف الحواضر مع ولادة مملكة رقية جديدة ونهضتها في شمال شبه الجزيرة البلقانية : مقدونيا . وقد أفلح الملك فيليبوس الثاني ، بجمعه بين الحملات العسكرية والمناورات السياسية ، في ان يخضع لسيطرتـه المدن ــ الجمهوريـــات الاغريقية الممزقة بالتناقضات الداخلية .

على ذلك النحو توحدت اليونان . لكن تلك الوحدة فرضت عليها بالقوة ، وكانت من صنع الاجنبي . ولهذا راحت روح العداء للمقدونيين تنتشر اكثر فأكثر في صفوف الشعب . وذرا للرماد في العيون ، اعلنت الحكومة الحرب على الامبراطورية الفارسية. وكان هذا المشروع يهدف الى صب تذمر الجماهير في اتجاه آخر،

كما كان يلوّح في الوقت نفسه لأعين الحكام المقدونيين بلألاء كنوز الشرق التي لا حصر لها ، والاستيلاء على اراض اجنبية ، واسترقاق شعوب لا تقع تحت عد .

قاد الحملات ضد الامبراطورية الفارسية المترامية الاطراف واحد من أشهر قادة العصر القديم وساسته ، الاسكندر المقدوني.

وفي برهة وجيزة من الزمن (٣٣٤ ـ ٣٢٧ ق.م) غزت القوات الاغريقية ـ المقدونية بقيادة الاسكندر الاكبر اقاليم شاسعة تمتد من مصر حتى الهند . واختار الاسكندر بابل عاصمة لهذه الامبراطورية .

نقل الاغريق ـ المقدونيون معهم الى آسيا وشمال افريقيا حضارة بلادهم البراقة ، وتأثروا بالمقابل تأثرا شديدا بالثقافة الشرقية . وقد نشأ عن هذا التفاعل وعن تلك المبادلات بين العالم الاغريقي وبين الملكيات الآسيوية والافريقية القديمة ما سمي بالاستهلانية . ويشار بهذا المصطلح عادة الى الحضارة التي ازدهرت في عصر فتوحات الاسكندر الاكبر وفي الدول التي أسسها خلفاؤه حتى عهد الفتح الروماني .

كانت الامبراطورية الشاسعة التيخلفها الاسكندر تبدو للوهلة الاولى متماسكة قوية . لكن التناقضات بين الارقاء وسادتهم ، بين الفاتحين والمقهورين ، وأخيرا بين مختلف فئات مالكي الارقاء ، وكذلك وعلى الاخص انعدام الوحدة الاقتصادية ، قضت عليها بأن تكون كيانا عارضا .

في عام ٣٢٣ توفي القائد الاكبر من دون ان يتاح له الوقت لتسمية خلف له . فانشقت امبراطوريته الشاسعة الى عدة ممالك مستقلة متفاوتة الاهمية ، ما ونت التناقضات التي تحدثنا عنها عن الامتداد والتفاقم في داخلها .

٣ ـ السمات الرئيسية
النظام الرقي في روما القديمة

تمثل روما الدولة الرقية على خير ما يكون التمثيل : فقد كان الارقاء فيها المنتجين الرئيسيين للسلع والخيرات المادية . وقد افضى ذلك الى أشكال ضارية جدا من صراع الطبقات بين الارقاء ومالكيهم .

ويجسد التاريخ الروماني السمات والقسمات الاكثر جوهرية للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المجتمعات الرقية .

تكوين المجتمع والدولة الرقيين الرومانيين :

ان الارتقاء السريع للعلاقات الرقية في روما فيمرحلة البداية يجد تفسيره في تأثير مجتمعات اخرى اكثر تطورا .

كان قسم كبير من سكان **المدينة الخالدة** ، اي العامة (اسرى الحرب السابقون ، سكان الاراضي الخاضعة لروما ، المهاجرون)، ينعم بالحرية الفردية ، لكنه كان محروما من الحقوق السياسية كافة . ورويدا رويدا اندمج العوام بالمواطنين الرومانيين الملقين.

نضال الشعب ضد الارستقراطية العشيرية :

خاض العوام ، بمساندة المواطنين الملقين ، صراعا ضاريا ضد ارستقراطية النسب ، الأشراف . وقد افضى هذا الصراع، المرتبط وثيق الارتباط بتفاقم التفاوت واللاتساوي في الثروة ، افضى في خاتمة المطاف الى انهيار العلاقات العشيرية . وطفقت

المشاعة تضم مذذاك فصاعدا جميع الملاك العقاريين ، أمن العوام كانوا ام من الاشراف . وغدت الثروة مبدأ التمايز الاجتماعي .

كانت الخيرات المادية التي يحوزها الملاّك هي التي تحدد مكان هؤلاء في المجتمع ونفوذهم ودورهم . وطفق أغنى العوام يندمجون بالأشراف . اما الجمهرة الرئيسية من العامة فكان بؤسها ما يني في تفاقم . ولم يطرأ تبدل ما على هذا الوضع في عام ٥٠٩ ق.م حين سقطت السلطة الملكية وأعلنت الجمهورية .

بداية الجمهورية :

كان الارتقاء الاقتصادي يزيد تدريجيا من اهمية دور عمل الارقاء . وكانت نتيجة ذلك تعزيز شأن الدولة ، بصفتها جهاز السيطرة السياسية لطبقة مالكي الارقاء وللشرائح المثرية الاخرى من السكان .

كانت الهيئة التشريعية العليا في جمهورية روما مجلس الشيوخ . وجرى استبدال السلطة الملكية بسلطة قاضيين ، سميا في البداية بالحاكمين ، ثم بالقنصلين . وكانا يتولان رئاسة مجلس الشيوخ ، ويقودان الجيوش في الحرب . ورويدا رويدا ظهر الى حيز الوجود قضاة ذوو مرتبة أقل رفعة ، وهم النظّار والقيّمون . ولم يكن لوظائفهم من تعويض ، ولهذا لم يقم بعبئها سوى ممثلي الطبقة المثرية . وكانت المناصب العليا ، وكذلك حق الانتخاب لمجلس الشيوخ ، امتيازا موقوفا على الاشراف .

ولم تخمد قط جذوة الصراع بين الاشراف والعوام .

وفي خاتمة المطاف انتزع العوام شتى صنوف التنازلات ، وفي مقدمتها تحظير الاسترقاق الناجم عن الديون . كذلك شقوا لانفسهم طريقا الى القضاء ، وصار لهم نقباؤهم . وكان من حق

نقباء العامة ان يعلقوا قرارات القضـــاة الأشراف ، اذا تناقضت ومصالح العامة .

أكمل الصراع بين الاشراف والعوام انقسام المجتمع بحسب الثروة . واندمج في آخر الامر أحفاد الأشراف القدامى والعوام المثرون ، وشكلوا طبقة جديدة محبوة بالامتيازات ، هي طبقـــة النبلاء . وفقدت كلمة العامة مدلولها الاول وصارت تشير الـــى الشرائح الدنيا ، المستغَلة ، من السكان . اما في مضمــــار السياسة الخارجية فقد كانت الحقبة الممتدة بين القرن الخامس والقرن الثالث ق.م تتسم بالحروب التي خاضتها روما بـــــلا انقطاع تقريبا من اجل السيطرة على شبه جزيرة الآبنين .

عندذاك اكتمل تبلور المجتمع والدولة الرقيين الرومانيين .

أوج المجتمع الرقي :

قاد تطور العلاقات الرقية ، وكذلك رغبة الطبقة السائدة في حل المشكلة الزراعية بواسطة الاستعمار، قاد روما الى الاستمرار في نهج سياسة التوسع العسكري خارج حدود شبه جزيـــــرة الآبنين . ففتح الرومان قسما كبيرا من افريقيا الشمالية ، وشبه الجزيرة البلقانية ، وآسيا الصغرى ،واسبانيا ، وأراضي بلجيكا الحالية ، الخ . وتحولت البلدان المفتوحة الى اقاليم رومانية ، وجعلت منها الطبقة المتربعة على سدة السلطة في الجمهوريـــة مصادر للاثراء المتواصل .

وكفلت الحروب المظفرة لروما سيلا من اليد العاملة المسترقة الرخيصة الكلفة .

غلبة العمل المسترق :

راح العمل المسترق يحل محل عمل المواطنين الاحرار . ولما

كانت البلاد بلادا زراعية ، فقد تجلت هذه الظاهرة بأقوى ما يكون في الزراعة . وقد أدى الاعتماد الكثيف على اليد العاملة المسترقة الى ظهور المزارع والمستعمرات الزراعية الكبيرة التي تنتج للسوق بوجه خاص . وطفق الفلاحون ، المحرومون من مصادر دخلهم القديمة ، يتحولون الى مستأجرين لقطع الارض الصغيرة من كبار الملاك ، او كانوا يضطرون الى مغادرة الريف الى المدن . وانصرف عدد قليل منهم فيها الى الصناعة اليدوية ، ولكن معظمهم انخلع طبقيا وانضم الى صفوف البروليتاريين الذين يعتاشون من الصدقات التي تمن بها عليهم الطبقة المتربعة على سدة السلطة .

وكان القرن الثاني ق.م بمثابة منعطف في المجتمع الرقي اليوناني . فابتداء منه صار الارقاء تدريجيا المنتجين الرئيسيين للسلع والخيرات المادية .

تقدم التجارة والربا :

أدى تطور النظام الرقي الى تكوين شبكة نخاسة حقيقية . وظهرت أسواق الرقيق في روما وفي اماكن اخرى .

كانت كفة التجارة الخارجية ترجح كفة التجارة الداخلية . كانت السلع الغذائية والبضائع الكمالية تتدفق على روما من اقاليم عديدة ، اي من بلدان مفتوحة او تابعة ؛ وكانت روما تورد اليها بالمقابل سلعها المعدنية وخمرها وزيت زيتونها .

افضى تطور التجارة والتداول النقدي الى ازدهار الربا . واخذت تتكون شركات للعشارين الذين يلتزمون بجباية الضرائب.

وتحول التجار والمرابون رويدا رويدا الى شريحة قائمة بذاتها من الطبقة السائدة .

تفاقم التناقضات في المجتمع الروماني :

كان الاستغلال المشتط للارقاء يزيد من حـــدة التناقض الاساسي بين مالكي الارقاء وبين الارقاء المنتجين المباشرين للسلع والخيرات المادية . وتعددت ثورات الارقاء بتواتر متزايد . وكانت اعظم تلك الانتفاضات انتفاضة سبارتاكوس .

كان سبارتاكوس عبدا رقيقا ومصارعا . وكانت حيـــاة المصارعين الذين يقتتلون في الحلبة العامة لتسلية الجمهور قاسية شظفة ، ومعلقة على الدوام بخيط واه . وفي العام ٧٤ ق.م ، أفلح سبارتاكوس مع حفنة من اصدقائه في الهرب من مدرســة المصارعين في كابوا الى وهاد الفيزوف . وتضخمت صفـــوف سريته ، التي ما كانت تضم في البداية سوى بضع عشرات مــن الرجال ، حتى تحولت الى جيش من ٦٠٠٠٠ مقاتـــل متعلمين ومنظمين على الطريقة الرومانية . وراح ذلك الجيش يزرع الرعب في صفوف المشايعين للرق .

كان يحارب الى جانب الارقاء صغار الفلاحين . وتمكـــن سبارتاكوس ، بفضل موهبته كقائد وبطولة الارقاء المتمردين ، من انزال هزائم منكرة بالقوات النظامية . وظلت رحى اعظم حرب اهلية في العصور القديمة تدور حتى عام ٧١ . واضطرت الطبقة الحاكمة الى تعبئة قواها كافة لتسحق تلك الهبّة الرائعة . لكن النظام الرقي كان ما يزال متين الدعائم . ومن جهة اخرى ، لم يضع الارقاء ، وما كانوا قادرين على أن يضعوا ، بالرغم من كـل موهبة زعمائهم ، برنامجا محددا للنضال في سبيل الانعتاق . وتكمن علة اخرى لهزيمتهم في التناقضات التي كانت تمـــزق صفوفهم .

كان لانتفاضة سبارتاكوس ، بالرغم من مآلها المفجع ، اهمية تاريخية عظمى . فقد سددت ضربة شديدة الى النظام الاجتماعي الذي كان سائدا يومئذ ، وأصابته بضعف لا يستهان به . ومن

مزاياها الاخرى انها عززت تقاليد النضال في سبيل الحرية . فحتى يومنا هذا ، ما يزال الكادحون يجلون اسم سبارتاكوس ، وما يزال هذا الاسم يرمز الى النضال الذي لا لين فيه ضد نير المستغلِين .

ابان ذلك ، تصاعد التوتر بين روما والاقاليم . واندلعت ثورات الشعوب المغلوبة على أمرها الواحدة تلو الاخرى . واستفحلت حدة التناقضات بين مالكي المزارع والمستثمرات الزراعية الكبيرة وبين صغار الفلاحين الاحرار الذين سد اولئك المالكون كل باب في وجوههم الا باب الافلاس والإملاق .

لكن ذلك التفاقم العام للتناقضات الاجتماعية ما كان يعني بعد أن الرق كنظام قد بات في ازمة ومأزق . واذا لم يكن هناك بد من الكلام عن ازمة ، فلم تكن الا ازمة الامبراطورية الرقية المتجسدة في الجمهورية الرومانية . لكنها كانت في الوقت نفسه عرَضا مبكرا للانحلال المقبل للنظام الاجتماعي القائم على اساس العمل المسترق .

سقوط الجمهورية وقيام الامبراطورية :

ادت ازمة الجمهورية في نهاية الامر الى نشوب حرب اهلية حقيقية كان طرفا الصراع فيها ، في منتصف القرن الاول ق.م ، مختلف شرائح الطبقة الحاكمة .

لقد اظهرت تلك الازمة للعيان ان الجمهورية الرومانية ، التي حافظت على البنى التقليدية للمدينة ــ الدولة ، لم تعد قادرة على ضمان استمرار السيطرة الطبقية لمالكي الارقاء في الامبراطورية الاستعمارية المترامية الاطراف التي شادتها . ولهذا لم ير مالكو الارقاء من وسيلة اخرى لتعزيز مواقعهم سوى الدكتاتورية

العسكرية . وابتداء من ذلك اليوم شارك كبار الملاك العقاريين في الاقاليم بدورهم في تسيير دفة الدولة . ولم تكن الامبراطورية سوى اداة السيطرة الطبقية لمالكي الارقاء الرومان والاقليميين على حد سواء .

ان البنية الجديدة التي تلبستها الدولة الرومانية تثبتت في خطوطها الكبرى في ظل دكتاتورية يوليوس قيصر (النصف الثاني من القرن الاول ق.م) وابنه بالتبني وخلفه الشرعي اوكتافيوس .

وفي النصف الثاني من القرن الاول والقرن الثاني بأكمله بلغت الامبراطورية الرومانية أوجها قوة وثراء ، ووصل توسعها الاقليمي الى حده الاقصى .

انهيار الدولة الرقية الرومانية :

ان انحلال اي مجتمع من المجتمعات وسقوطه لا يحدثان ابدا بصورة مفاجئة . وانما هي ظاهرة ممتدة في الزمن ، تتفاوت حدتها من مرحلة الى اخرى . وقد ظهرت أعراض انحطاط الامبراطورية الرومانية في عصر كان يبدو فيه ان ما من شيء في الوجود بقادر على زعزعة أركان ذلك البناء العظيم .

كان واحد من تلك الاعراض قد برز الى حيز الوجود في نهاية القرن الاول وبداية القرن الثاني ب.م ، وقد تمثل في التراجع التدريجي لدور المستثمرات الزراعية الكبيرة التي تتولى العمل فيها يد عاملة مسترقة . فالارقاء ما كانوا معنيين بصورة من الصور بنتائج عملهم . وكان اصحاب العزبات يضطرون الى اقامة جهاز معقد للمراقبة والتأديب ، زاد في غلو كلفة الانتاج .

لهذا ارتأى كبار الملاك العقاريين في احيان كثيرة انه من الاربح لهم ان يحافظوا ، في اطار العزبة ، على مستثمرات خاصة صغيرة . وكان يتولى زراعة هذه المستثمرات الصغيرة الارقاء

ايضا ، وكان سادتهم يزودونهم بالعدة اللازمة ويعوضونهم عن اتعابهم بمنحهم جزءا من المحصول . وظهر الى حيز الوجود ايضا مزارعون أحرار أطلق عليهم الفدّادين (Colons) . وكان بعضهم يدفع لمالك قطعة الارض المستأجرة نقدا، بينما كان بعضهم الآخر (بأعداد متزايدة باستمرار) يتخلى له عن قسم من الحصاد. وتحول اولئك الفدّادون تدريجيا الى زراع مستقلين . وتضاعفت صفوفهم على حساب طبقة الفلاحين الاحرار المملقين ، وكذلك نتيجة لتدفق أعداد متزايدة من الارقاء المعتوقين .

واسهم نظام الفدادة Colonat في اثارة اهتمام المنتجين المباشرين بنتائج عملهم .

وكانت الطريقة المسماة بالنافلة تخدم الهدف عينه . فقد كان السيد يمنح العبد من باب حق الانتفاع قسما من ارضه شريطة ان يؤدي له حصة معلومة من المدخول .

تفاقم ازمة المجتمع الرقي :

بدأت أعراض الانحلال الاولى بالظهور ابتداء من النصف الثاني للقرن الاول ب.م . وفي القرن الثالث عمت وتصاعدت ، وراح المجتمع الروماني يتخبط في ازمة عميقة .

كان قد طرأ تغير كبير على وضع الطبقات المتناحرة الرئيسية وعلى العلاقات فيما بينها . فقد كانت انتاجية عمل الارقاء الضعيفة تدفع بالملاك الى عتقهم . وهذا معناه ان السادة وجدوا انفسهم مرغمين على العزوف عن الاكراه المكشوف . ومن جهة اخرى ، كانت تبعية الفدّادين للملاكين تتزايد وتتوثق على نحو متواصل . وبعبارة اخرى ، كانت شروط المزارع الحر الصغير والعبد الرقيق تتقارب . وغالبا ما كان الفلاحون الفقراء او غير

الميسورين ينحطون الى مستوى الفدّادين . ونظرا الى ان روما كانت ، على غرار سائر المدن القديمة الاخرى ، مجتمعا من مواطنين أحرار من ذوي الاملاك ، فان دورها كحصن لنظام الرق قد وهن وضعف نتيجة لذلك .

وكان اعضاء الاتحادات الحرفية تؤول بهم الحال بدورهم الى الإملاق والافلاس تدريجيا .

وكانت وطأة الضرائب المتعاظمة باستمرار والنهب المنظم للاراضي المشاعية يسهمان في إملاق غالبية سكان المدن ، ويسرّعان الذبول التدريجي للبنى المدينية .

وشحذت الازمة الاقتصادية في القرن الثالث التناقضات الاجتماعية شحذا حادا . وتلاقت مصالح الفدّادين والمواطنين الفقراء ضد مشايعي الرق .

وتصاعدت كذلك الميول والنزعات الانفصالية في الاقاليم ، كما تصاعد صراع مختلف الفئات على العرش . وفي هذه الخلافات الاهلية ، كان الجيش يقوم بدور متعاظم .

وفي الاعوام ١٩٣ ــ ١٩٧ اندلعت حرب اهلية سافرة بين مختلف احزاب الطبقة المتربعة على سدة السلطة ، وكانت نتيجة تلك الحرب ازمة سياسية بالغة الخطورة .

الانحلال النهائي لنمط الانتاج الرقي :

كان تطور الفدادة واحدا من الادلة الساطعة على انحلال علاقات الانتاج الرقية . وفي القرن الرابع ، في عهد قسطنطين، تحول الفدادون الى أقنان مرتبطين بالارض . وصار الفدادون ملزمين مذذاك فصاعدا ، بصرف النظر عن اصلهم الاجتماعي ، بالعمل في قطعة الارض التي يعينها لهم المالك العقاري . وكان

هذا معناه في الواقع نظام القنانة بكل ما في الكلمة من معنى . لكن مؤسسة الفدادة Colonat ما كان يمكن ان تتطور لتشكل نظام العلاقات الاقطاعية . فقد كان النظام الرقي ينصب عراقيل كأداء في وجه هذا التطور .

وليس الفدادون هم وحدهم الذين تحولوا الى أقنان مرتبطين بالارض . ففي الواقع ، امتدت القنانة الى الصناعة اليدوية ايضا. لكن إفقار المدن ظل في تقدم متواصل رغما عن كل شيء .

انعكس تعفن نمط الانتاج الرقي على العلاقات الداخلية للطبقة السائدة . فقد زال التدعم المؤقت للدولة كناطقة بلسان مجمل طبقة مالكي الارقاء لتحل محله التجزئة السياسية . وتضاءل اكثر فأكثر اعتماد كبار الملاك العقاريين على السلطة المركزية وتفاهمهم معها . وتلافيا للافلاس التام ، سعى صغار الزراع الاحرار الى وضع انفسهم تحت حماية كبار سادة الارض ، وبذلك سقطوا في تبعية ادهى وأمرّ .

كانت الانتفاضات الشعبية الجامحة تزعزع اكثر فأكثر بنيان النظام الرقي . وقد انصهرت الان في بوتقة واحدة الازمة السياسية والازمة الاجتماعية . وقد كان من مظاهر هذه الازمة انشقاق الامبراطورية الى امبراطورية شرقية وامبراطورية غربية، وقد تكرس الانشقاق رسميا في عام ٣٩٥ .

الثقافة والايديولوجيا الاغريقية ـ الرومانية :

مرت الحضارة الاغريقية ـ الرومانية بعدة أطوار من التطور، وأدركت مستوى لم تبلغه حضارة اخرى من قبلها . وقد أثرت تأثيرا دائما لا يمكن محوه في ثقافات العديد من شعوب الكرة الارضية . وقد زاد توطد النظام الرقي وازدهاره في اليونان وروما في عمق الهوة الفاصلة بين الايديولوجيا الرسمية للطبقة

المالكة وايديولوجيا جماهير المضطهَدين . كذلك وجدت المنافسات الداخلية في صفوف الطبقة المالكة (بين الارستقراطيين والديموقراطيين ، بين أنصار الامبراطورية والجمهوريين) تعبيرها في الايديولوجيا ، وعلى الاخص في الفلسفة .

ان الصراع بين الاتجاهين الرئيسيين (المادية والمثالية) يسم بميسمه كل تاريخ الفلسفة الاغريقية ـ الرومانية . وقد سادت المثالية ، في شكل الايديولوجيا الدينية ، في اليونان وروما ابان المرحلة الاولى من تطورها التاريخي . ورأت المادية النور كاتجاه الى نفي وجود مبدأ إلهي في الطبيعة والانسان . وكان الفلاسفة الماديون يقولون ، كل بطريقته ، بهاتين الاطروحتين الاساسيتين: للعالم اساس مادي ، والمعرفة الحسية مفيدة .

مثلت التيار المادي الاول في الفلسفة اليونانية المدرسة المسماة بالايونية (١) التي كان من أنبغ اساتذتها طاليس واناكسيماندر وانكسمانس . وقد طوّر أطروحاتهم في القرن الرابع ق.م هيرقليتس الذي وضع في اساس كل موجود جوهرا أوليا ، النار . كما صاغ هيراقليتس بعض أطروحات الجدل .

وقد تقدم بعض الفلاسفة الماديين الاغريق (وعلى وجه التعيين ليوكيبوس وديموقريتس) ، الذين كانوا يتأملون في البنية العميقة للمادة ، بفرضية الذرات ـ الجزيئات اللامتناهية في الصغر وغير القابلة للانقسام ، الاشبه ما تكون بآجرات دقيقة يتألف منها بنيان الكون بأسره ، وتحدد تراكباتها تنوع العالم المادي ووحدته في آن معا .

وقد تبنى أطروحاتهم وطوّرها المفكر اليوناني ابيقور والشاعر الروماني لوكريس .

---

١ ـ نسبة الى ايونيا ، احدى مناطق اليونان القديمة .

على امتداد التاريخ الاغريقي ـ الروماني وقف الاتجاه المادي موقف المعارضة من المثالية . وفي القرن الخامس ق.م كان يروج للآراء المثالية عالم الرياضيات فيثاغورس وتلامذته الكثر . كانوا ينفون ماهية العالم المادية ويجهدون للبرهان على ان في اساس كل موجود الأعداد التي تحدد قيمها المختلفة تنوع الظاهرات والاشياء . وكان الفيثاغوريون يؤمنون في الوقت نفسه بخلود الروح ، كما يقول به الدين .

في عداد اكبر الفلاسفة المثاليين في اليونان القديمة يمثل سقراط وأفلاطون (القرنان الخامس والرابع ق.م) . وقد توصل أفلاطون ، بتطويره مذهب سقراط ، الى الاستنتاج بأن جميع ظاهرات العالم الخارجي وأشياءه ما هي الا إنعكاس باهت للمُثل الثابتة والخالدة. ولم يحارب افلاطون الماديين على صعيد الافكار فحسب ، اذ لم يتردد في اتهام تلامذة ديموقريتس بجرائم تستوجب ، بمقتضى الشريعة الاثينية ، عقوبة الموت . وكان يهدد بأن يشتري جميع مخطوطات ديموقريتس ويلقي بها لقمة سائغة للنيران . وتكمن علة ضراوة الصراع بين الماديين والمثاليين في ان الأوائل كانوا يعبرون ، بوجه العموم ، عن افكار الاوساط التقدمية والديموقراطية ، بينما كان الاخيرون ينطقون بلسان الارستقراطية الرجعية .

ويحتل مكانة رفيعة السمو في الفلسفة القديمة ارسطو (القرن الرابع ق.م) . ولم يكن أرسطو ماديا متماسكا ، لكنه اخضع أطروحات افلاطون الرئيسية لنقد صارم ومبرر .

العلم :

كان العلم يعتبر في عصر الحاضرات نسقا واحدا أوحد . وترجع علة ذلك الى فقر المعلومات والمعارف عصرئذ ، وهو الفقر

الناجم بدوره عن جنينية القوى الانتاجية . ولم تبدأ الفروع العلمية بالتطور الا في القرن الخامس ق.م ، وذلك مع توطد مكانة اليونان اقتصاديا وسياسيا ، فظهرت علوم الرياضيات والفلك والطب والتاريخ والفيزياء. وتأكدت هذه الظاهرة وتعمقت بعد فتوحات الاسكندر الاكبر التي أوجدت تيارات تبادل بين الحضارتين الاغريقية والشرقية . وثمة واقعة لها دلالتها في هذا المجال : ففي العصر الاستهلاني تحديدا عاش علماء من أمثال الجغرافي ايراطوسطينس ، وعالم الرياضيات والفيزياء أرخميدس ، وكثيرون غيرهما .

لاقت منجزات العلم الاغريقي والاستهلاني حسن استقبال وترحاب في رؤما ، وبدءا منها تطور العلم الروماني بحصر المعنى. وكان من أبرز ممثليه فارون الذيعاش في أواخر عهد الجمهورية. وتدين له البشرية بموسوعة حقيقية للعلوم ، وبأبحاث عديدة في مختلف الميادين بدءا من علم اللغة الى الهندسة الزراعية .

وقد أبدى الرومان تفوقا ممتازا في دراسة الحقوق والفقه .

وما تزال كتابات المؤرخين والاثنوغرافيين الرومان ، نظير **تعليقات** يوليوس قيصر ومؤلفات سالوستس وطاسيتس وبلوتارك وآبيين ، تحتفظ حتى يومنا هذا بقيمة علمية رفيعة .

الفن :

وصل الاغريق والرومان القدامى في مضمار الفن الى مستوى خارق للمألوف ؛ ومساهمتهم في تراث الحضارة العالمية لا تقدر بثمن حقا .

ان الآثار الاولى للادب الاغريقي (الاساطير ، **الالياذة والاوذيسة** لهوميروس) تنتزع الاعجاب بعمق الفكرة وكمال الشكل

والنزعة الواقعية (بالرغم من الغلاف الديني المؤطرة به) في رسم العواطف والاهواء البشرية .

حفل الادب الاغريقي بكتاب مرموقين بقيت آثارهم حتى يومنا هذا . حسبنا ان نذكر منهم الكاتب الهزلي أرسطوفانس ، وكتاب المآسي سوفوكلس واسخيلوس ويوريبيدس ، ومؤلف الحكايا الكبير إيسوب ... ويستأهل تذكرة خاصة هزيود الذي يصف كتابه **الاعمال والايام** حياة الفلاح وكدحه .

لم يقتف الكتاب الرومان اقتفاء اعمى أثر تقاليد الادب الاغريقي الكلاسيكي والحضارة الاستهلانية . بل أبدعوا الكثير من الآثار الاصيلة والمرموقة ، بالاضافة الى انواع ادبية غير معروفة من قبلهم . ونخص بالذكر هنا الشعراء كاتولا وفرجيل وأوفيد وهوراس . فبعد تصرم العديد من القرون نقع على تأثيرهم في كتابات عباقرة من أمثال دانتي (ايطاليا) وبوشكين (روسيا) وميكييفيتش (بولونيا) . وفي روما تحديدا تطورت الرواية مع **الحمار الذهبي** لآبولس **وساتيريكون** لبترون .

وأدرك المسرح ايضا مستوى رفيعا للغاية . وفي اثينا بصورة خاصة، كان المسرح جزءا غير قابل للانفصال من الحياة الاجتماعية بأسرها . اما في روما فكان هناك ، الى جانب العروض المسرحية الغنية بأنبل معاني الكلمة ، ملاهٍ همجية تستوحي مباشرة العقلية الطبقية لمالكي الارقاء ، ونخص بالذكر منها حفلات المصارعة . فقد كان الارقاء ــ المصارعون يضطرون ، تسلية منهم للجمهور، الى الاقتتال فيما بينهم في معارك ضارية والى الموت فوق رمال السيرك .

كانت البلاغة تحتل مكانة رفيعة في الحياة العامة الاغريقية ــ الرومانية . ويجب ان نذكر في عداد اعظم خطباء العصور القديمة ليسياسن وديموستينس (اليونان) ، وشيشرون (روما) . وقد تركوا لنا نماذج لا تنسى من الخطب .

ومهما يكن عرضنا مقتضبا ، فلا غنى لنا عن ذكر فن النحت

الاغريقي ـ الروماني القديم الذي خلف لنا روائع منقطعة النظير حتى يومنا هذا .

وكانت الموسيقى والغناء والرقص تحظى برواج واسع في اليونان ، وبرواج أقل في روما .

وأبرز مظاهر الحضارة الرومانية في العهد الامبراطوري انها كانت تجسد تركيبا عضويا للثقافات الاغريقية القديمة والاستهلانية والرومانية الصرف . وقد نشأت حضارة رومانية ـ استهلانية واصلت تقدمها في مدارج الرقي في القرون الاولى من وجود الامبراطورية . لكن المستوى العام للحضارة تردى بشكل محسوس في القرنين الرابع والخامس ، اي في أوج ازمة نمط الانتاج الرقي . وقد اسهمت المسيحية في ذلك بإدانتها العبادة الوثنية للجسم الانساني ، وبتصفيتها التيارات الفلسفية التي سبقتها ، وبمقاومتها الطقوس والاعياد القديمة .

أصول المسيحية :

كان العامل الاول في ظهور الديانة المسيحية الوضع الصعب والشاق للجماهير الواسعة من سكان الامبراطورية : أرقاء ، فدادون ، شعوب مغلوبة على أرضها . وكانت طبقة السادة قد أغرقت في الدم المحاولات الثورية ، فكان ان انطفأ الامل وانقطع الرجاء في الانعتاق والخلاص في هذه الدنيا . وتعاظم رواج الديانات الشرقية التي تعد بحياة افضل في الآخرة . وقد تبنت المسيحية لحسابها عناصر عديدة من تلك الديانات . وكانت في البدء دين المضطهَدين ، دين التعساء والمساكين . لكن سرعان ما صار لها أتباع في صفوف الشرائح الميسورة من السكان التي كانت تقف ، لاسباب شتى ، موقف المعارضة من السلطة . وتلاشت بسرعة بساطة حياة الجماعات المسيحية الاولى ،

والمساواة التي سادت في البداية بين اعضائها . ونتيجة لما راكمته تلك الجماعات من ثروات ولما طرأ على طقوس العبادة من تعقيد ، انحفرت في خاتمة المطاف هوة بين جمهور المؤمنين وأحبار الكنيسة . وتشكل هرم تراتبي كهنوتي معقد .

بدأت الطبقة الممسكة بمقاليد السلطة تدرك ان الكنيسة المسيحية تشكل ، بما تدعو اليه من خضوع وانقياد وبما تعد به من سعادة في الآخرة ، اداة ايديولوجية عظيمة لتجريد الكادحين من سلاحهم ولاسترقاقهم .

وفي القرن الرابع ب.م تحولت المسيحية الى ديانة رسمية وسائدة . وبعد ان كانت موضوع مطاردة وملاحقة واضطهاد حتى منتصف القرن الثالث ، انتقلت منذ ذلك اليوم الى الهجوم على الديانات الاخرى .

انهيار الامبراطورية الرومانية :

في القرنين الرابع والخامس تم نهائيا انحلال التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية الرقية . فأمسى العمل المسترق عقبة كأداء في وجه تطور القوى الانتاجية . كانت الهندسة الزراعية ، على سبيل المثال ، قد راكمت في ذلك العصر قدرا من المعارف التقنية التي تسمح بزيادة انتاجية الشغل في الارض زيادة مرموقة . ولكن ما كان الا لأناس معنيين الى حد ما بنتائج جهودهم ان يطبقوا تلك الطرائق الجديدة التي تقتضي من الزارع الكثير من الانتباه والعناية . بهذه الصورة ، طرح التاريخ من تلقاء نفسه مسألة الانتقال الى علاقات انتاج اكثر مواءمة . وكانت قلاقل متواصلة تهز أركان النظام الرقي . وفي جنوب الامبراطورية ، في افريقيا الرومانية ، لم ينقطع حبل البلبلة والاضطراب وهبّات الارقاء والفدادين والحرفيين لحظة واحدة

على امتداد القرنين الرابع والخامس . اما في الشمال ، اي في غاليا واسبانيا الشمالية ، فقد استمرت بلا انقطاع من القرن الثالث الى القرن الخامس حركة البوغاؤود التي عبرت عن نفسها في حروب تحرير وهبات وانتفاضات عظيمة . وفي الوقت نفسه ، كانت القبائل البربرية المجاورة تهاجم الامبراطورية الرومانية من الغرب . وقد حاول الاباطرة الرومان الاعتماد على فرق المرتزقة الجرمان ، لكنهم أمسوا بسرعة دمى طيعة بين أيدي زعمائهم .

وفي العام ٤٧٦ ، اطاح زعيم فرقة من تلك الفرق ، ويدعى اودواكر ، بآخر الاباطرة . وقد اصطلح من ثم على اعتبار ذلك التاريخ تاريخ السقوط النهائي للامبراطورية الغربية الرومانية . ولما كان نمط الانتاج الرقي قد ادرك في تلك الامبراطورية تحديدا تطوره الاقصى ، فان انهيار روما كان معناه ايضا انهيار كل التشكيلة التي تمثلها .

الفصل الثالث

المجتمع الاقطاعي

كما تكونت العلاقات الرقية في نطاق المشاعة البدائية ، كذلك رأت العلاقات الاقطاعية الاولى النور في ظل نظام الرق .

كانت الملكية العقارية الكبيرة قد ابتلعت ابتلاعا شبه تام المستثمرة الفلاحية الصغيرة . وكانت الاملاك الزراعية الواسعة التي يعمل فيها الارقاء والفدادون بمثابة استباق للاقطاعات التي سترى النور مستقبلا .

لم يكن من سبيل الا سبيل انقلاب ثوري للاطاحة بالتشكيلة الرقية وبالدولة وبسائر عناصر بنيتها الفوقية التي كانت تسد الطريق في وجه التشكيلة الاقطاعية التي يرمز اليها المؤرخون الماركسيون بمفهوم **العصر الوسيط** . ويطلق كذلك على المرحلة

الاولى من العلاقات الاقطاعية ، على عصر تبلورها ، اسم العصر الوسيط الاعلى .

وقد بدأ في اوروبا في القرن الخامس ودام حتى فجر القرن الحادي عشر . أما في آسيا ، فقد بدأ في القرن الثالث في الصين ، وفي القرنين الرابع والخامس في الهند ، وفي القرن السابع في شبه جزيرة العرب ؛ وكانت نهايته في القرن الثامن في الصين ، ولكنه دام في غالبية اقطار تلك القارة حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

والمرحلة الثانية في تاريخ العلاقات الاقطاعية هي مرحلة ازدهار الاقطاع . وتتوافق في الزمن مع الانفصال الثاني بين المهن والزراعة ومع نشوء المدن كمراكز للتجارة والصناعة اليدوية. وقد دامت تلك المرحلة في اوروبا من القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر ، وفي آسيا وافريقيا الشمالية من القرنين الحادي عشر والثاني عشر حتى القرن الخامس عشر .

اما المرحلة الثالثة من الاقطاع فتتسم بالانحلال التدريجي للعلاقات الاقطاعية وبظهور العلاقات الرأسمالية . وتعرف باسم العصر الوسيط الادنى . وقد امتدت في اوروبا من القرن الخامس عشر الى اواسط القرن السابع عشر .

اما في آسيا وافريقيا فقد ابقى التوسع الاستعماري الاوروبي على العلاقات الاقطاعية قيد الحياة لحقبة مديدة من الزمن . لكن منتصف القرن السابع عشر يعتبر ، بوجه الاجمال ، نهاية الاقطاع وبداية الرأسمالية .

١ ـ مرحلة تكوين العلاقات الاقطاعية
(العصر الوسيط الاعلى)

مع نضوج العلاقات الاقطاعية تحددت السمات الاساسية

لنمط الانتاج الخاص بها ، وعلى الاخص أشكال الملكية العقارية وأنماط الريع العقاري كوسيلة لتملك ثمار عمل الفلاحين والحرفيين .

التحول الاقطاعي لأوروبا الغربية :

أدت احتكاكات الجرمان والسلاف القدامى بأمبراطورية روما الرقية الى ولادة العلاقات الاقطاعية لديهم من المشاعة البدائية بصورة مباشرة . وكان الانشقاق الى طبقات قد بدأ لدى تلك الشعوب في مرحلة انحطاط الامبراطورية . لكن الطبقات لم يكن لها من وجود الا في شكلها الاكثر بدائية ، شكلها الرعوي .

وقد أدى تردي العلاقات بين القبائل الجرمانية والسلافية من جهة وبين الامبراطورية الرومانية من الجهة الثانية الى ترسخ الرغبة لدى البرابرة في وضع حد لقوة الدولة الرقية العظمى .

كان الارقاء والفدادون يساندون القبائل الجرمانية والسلافية في غاراتها وتوغلها داخل امبراطورية الغرب وبيزنطة ، لأن الغزاة كانوا ينظمون الامور على نحو يتحسن معه وضع الشرائح المضطهدة . فقد كان الجرمان يصادرون ، اولا ، اراضي كبار الملاك العقاريين الرومان وأرقاءهم . وكان استغلال الارقاء عندهم اقل شراسة بكثير مما في روما . وكانوا يحملون معهم ، ثانيا ، أعراف المشاعة البدائية وشرائعها ، وقد جعلوها تسري على صغار الفلاحين الاحرار ، وبذلك خفت على هؤلاء في بادىء الامر وطأة وضعهم .

كانت تلك الاعراف والشرائع تتراكب مع العناصر الاقطاعية التي رأت النور في نطاق المجتمع الرقي المتعفن ، مما أسهم في التوطد السريع للعلاقات الاقطاعية الجديدة . وقد تبنى الفاتحون

الجرمان ، وعلى الاخص الفرنجة في التراب الفرنسي الحالي ، أعلى مستوى لتطور القوى الانتاجية كما كانت تعرفه الامبراطورية الرومانية . ونظرا الى ضعفهم العددي (بالمقارنة مع سكان الاقاليم الرومانية السابقة) ، اضطروا الى الابقاء على نظام الملكية العقارية الراسخ الجذور، كما هو بلا تغيير . ولكنهم زرقوا بالمقابل المجتمع الروماني الشائخ بقوى جديدة ، وكفلوا للانتاج نهضة جديدة . وراح كبار الملاك الرومان يندمجون تدريجيا بالارستقراطية الجرمانية ، فتشكلت على هذا النحو طبقة سائدة متجانسة .

كان الفلاح المملق الذي يذيقه كبار الملاكين الأمرّين يجد نفسه مكرها على التخلي لهذا المالك او ذاك عن قطعة ارضه التي تصبح بالتالي ملكا للمولى النبيل . ثم كان هذا الاخير يعيدها اليه، لا على سبيل التملك ، وانما على سبيل الانتفاع مدى الحياة او وراثيا . وكان الفلاح يتخلى للمولى عن جزء من نتاجه ويؤدي له بعض السخرات ، وكان المولى يلتزم بالمقابل بحمايته من سائر الملاك العقاريين الكبار . وكان يحدث ايضا ان يحصل الفلاح على قطعة ارض أوسع من تلك التي كان يعمل فيها سابقا . وبهذه الصورة ، كان كبار الملاك العقاريين ، وفي عدادهم الكنيسة (اعتنق الفرنجة المسيحية في نهاية القرن الخامس) ، يجتذبون اليد العاملة الى الاراضي غير المزروعة بعد.

وفي حقبة لاحقة ، ارتبط تقدم النظام الاقطاعي بانقلاب فريد من نوعه في العلاقات العقارية ، وقد حدث في القرن الثامن .

فالاراضي ما عادت تمنح مذذاك فصاعدا على سبيل الملكية الخاصة ، وصار ممثلو الطبقة السائدة لا يحصلون على أملاك او اقطاعات الا مقابل التزامهم بالخدمة في جيش الملك على راس سرايا يتم تجنيدها من اراضيهم . وكان هذا الشكل المشروط من أشكال الملكية يسمى بإقطاع المنفعة Bénéfice . ولم يكن اقطاع المنفعة وراثيا ، وما كان يمنح الا ابان الحياة . وكان يمكن ان يصادر في أي لحظة اذا لم يف المنتفع بالتزاماته العسكرية .

وبعد موت المنتفع كانت الارض المقطعة تعود الى الملك او الى ورثته .

طرأت على هذا النظام تغيرات جديدة في القرنين التاسع والعاشر . فقد اصطبغ اقطاع المنفعة العسكري تدريجيا بطابع وراثي ، وتحول الى ما سمي بالاقطاع الحر Frac Alleu

وقد ارتبط نظام الاقطاع الحر وثيق الارتباط بمؤسسة المقطعية Vassalité : فقد كان على كل مالك عقاري ان يقر بتبعيته لمولى او لعاهل اقوى منه وان يعلن نفسه مقطعا وتابعا له. وكان المقطع يتلقى من مولاه إخاذة ويلزم بوضع سلاحه في خدمته .

لم يكن قيام علاقات المقطعية في بادىء الامر سوى اجراء من اجراءات الحق الخاص ، لكن بدءا من النصف الثاني من القرن التاسع اعلنت المراسيم الملكية إلزامية المقطعية .

هكذا توضحت معالم السلم الهرمي التراتبي المميز للتنظيم السياسي للاقطاع. ففي اعلى السلم يقف كبار اصحاب الاقطاعات الذين لا يعترفون بمولى آخر عليهم سوى الملك . ويأتي بعدهم سادة أقل اهمية . اما آخر حلقة في تلك السلسلة من المستغِلين فكانت تتألف من ممثلي النبالة الصغيرة الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم الفرسان .

القوى الانتاجية :

ادركت قوى الانتاج الجديدة في تلك الحقبة مستوى متقدما يبيح لنا الكلام عن السمات المحدِّدة للاقطاع .

أدى تجويد شغل الحديد الى انتشار المحاريث (الثقيلة والخفيفة) وبعض ادوات الفلاحة الاخرى . وقد اسهمت هذه

الواقعة بدورها في زيادة انتاجية الزراعة . فقد راجت المناوبة الزراعية الثلاثية تدريجيا ، وتوسعت الكروم وانتشرت . وكان من نتيجة ذلك ان طرأ تحسن ملموس على معصر العنب . وظهرت الى حيز الوجود منشآت جديدة اخرى ، ولاسيما الطاحونـــة الهوائية . وتم تجويد الطاحونة المائية ، الموروثة من عهد الرق ، وأضيفت اليها العجلة ذات الريشات .

لكن بالرغم من هذا التقدم الذي لا مماراة فيه ، لبث الانتاج الاقطاعي في تلك الحقبة متسما بالرتابة والركود التقني . وهذا ينطبق اصلا ، بقدر متفاوت من الصحة ، على الاقتصاد الاقطاعي في جميع أطوار تطوره .

علاقات الانتاج والملكية في ظل الاقطاعية :

حدد مستوى القوى الانتاجية طابع علاقات الانتاج الاقطاعية. ولتحليل هذه العلاقات ، ينبغي تحديد الشكل الغالب لملكيـــة وسائل الانتاج ، وكذلك وسائل تحقيق هذه الملكية (اي طرائــق توزيع المنتجات) ، وأخيرا وضع مختلــف الفئات الاجتماعيـــة والطبقات (وهو وضع مرتبط اصلا بالعوامل الآنفة الذكـــر) وعلاقاتها المتبادلة في الانتاج .

كانت وسيلة الانتاج الرئيسية في ذلك العصر ، الارض ، تخص بلا منازع السادة والنبلاء . ولم تكن قطع الارض التـــي يستثمرها الفلاحون الاحرار تمثل غــير استثناء نادر منتهى الندرة .

كان السادة الاقطاعيون يطبقون حقوقهم في الملكية بطريقتين. ففي البداية كانت الاراضي موزعة الى ثلاثـــة أقسام : البيت وملحقاته والمبقلة تخص الفلاح ؛ والاراضي المحروثة تعتبر ملكية مشاعية ، لكن كان يعاد توزيعها بانتظام ؛ وأخيرا كانت الغابـــات

والمراعي ، الخ ، تخص المشاعة وتؤلف ملكية لها غير قابلة للقسمة.
وقد بقي ذلك التقسيم قائما بوجه عام حتى زمن تبلور النظام الاقطاعي . فمعظم الاراضي الصالحة للزراعة أمست منذئذ تحت الرقابة المباشرة لوكلاء المولى . وكانت تشكل ما يسمى ب «الاملاك» . وكانت تلك هي ، بالنسبة الى السادة والنبلاء ، الطريقة الاولى في استثمار احتكارهم للارض . اما الطريقة الثانية فكانت توزيع قطع ارض صغيرة على الفلاحين (Manses) ليشتغلوها بقدر من الاستقلال . وكانت الغابات ومناطق الصيد والمياه ، املاكا مولوية . لكن كان للفلاحين ، بصفتهم اعضاء في المشاعة ، بعض الحقوق عليها : رعي ماشيتهم ، صيد السمك ، الخ .
وطوال قرون حافظ الفلاحون على مخلفات المشاعة في شكل تنظيم عام فريد من نوعه كان يذود عن مصالحهم .
كان نمطا استغلال العمل الفلاحي يجعلان السيادة للانتاج الصغير . وكان تجزؤ القوى الانتاجية وتبعثرها يحولان دون تقدم الاقتصاد . وكان للاستثمار العقاري طابع طبيعي .
وقد وسمت هذ السمة الحقبة الاقطاعية بكامله تقريبا ، ولكن على الاخص العصر الوسيط الاعلى .
لم يكن للانتاج في الاقطاعة غير هدف واحد : تلبية حاجات المولى الزمني او الروحي وحاشيته ، وفي اراضي التاج حاجات الملك والبلاط . اما الحرف ، التي كانت قد انفصلت في عهد الرق عن الزراعة ، فقد عاودت الانصهار فيها عقب الكساد الاقتصادي الذي رافق سقوط الامبراطورية الرومانية . وكان الانتاج المحلي يسد حاجات المولى والفلاحين من السلع الحرفية. وكان كل ما ينتج في المستثمرة الاقطاعية يستهلك ، خلا بعض الاستثناءات النادرة ، ضمن اطارها .
كانت ثمار عمل الفلاحين التي يستأثر بها المولى تشكل ما

يسمى بالريع الاقطاعي ، الهدف الاسمى للانتاج .

ولم تبق أشكال ذلك الريع ثابتة . ففي البدء ، كان الفلاح يجبر على تخصيص القسم الاعظم من وقته للعمل في ارض المولى . وكان هذا الشكل من الإتاوة يسمى بالسخرة ، وكان من السخرات الاخرى التي يلزم بها الفلاحون بناء التحصينات ونقل المنتجات والمشاركة في بعض الاشغال الحرفية ، الخ .

طردا مع نمو انتاجية العمل الفلاحي وارتقاء التقنيات الزراعية ، وجد الموالي انه من الاربح لهم ان ينقلوا مركز ثقل الانتاج مباشرة الى المستثمرات الفلاحية . وبذلك صار الريع الطبيعي الشكل الثاني للريع الاقطاعي .

كان الريع يعتبر ضربا من تعويض يؤديه الفلاح للمولى الذي يعيره الارض والعدة . وكان ذلك التعويض يسمى بالاتاوة Redevance . وكان من الإتاوات الاخرى رسوم الرعي والصيد ، الخ ، لان المراعي والمياه التي كانت فيما مضى ملكا مشاعا قد استأثر بها واحتكرها الموالي .

كانت السخرة في العصر الوسيط الاعلى الشكل الاكثر انتشارا للاتاوة . وكان الريع العيني بمثابة استثناء .

مع تطور المدن اكتسب الريع النقدي اهمية بالغة . فقد صار المولى معنيا بسلع لا تنتج في إقطاعته ، وما كان له بد لشرائها من الحصول على مال من أقنانه .

في العصر الذي كانت فيه كفة الريع الطبيعي هي الراجحة، مثله مثل العصر الذي رجحت فيه كفة الريع النقدي ، كانت الاتاوات العقارية تؤلف القسم الاعظم من الريع الاقطاعي . وكان فائض النتاج ما يزال متألفا من شتى انواع الفرائض والضرائب المترتبة على التبعية الشخصية لعامة الناس تجاه المولى ، وكذلك من الغرامات القضائية والادارية . وكانت ضرائب الفئة الثانية تأخذ احيانا (وخاصة في فرنسا) شكل ضريبة الاعناق Capitation . وفي بعض البلدان كان للمولى ، حين يعقد

الفلاح قرانه على امرأة، حق التفخيذ Cuissage (١) . وفي زمن لاحق استعيض عن ذلك الحق بتعويـــض نقدي او عيني . وبحكم تبعية الفلاح الشخصية للمولى ، كان يؤدي له رسما على حق الارث . وكان يضطر احيانا الى ان يتخلى له عن أحســن حيواناته الاهلية ، او عن ملابسه لايام الاعياد ، او عن قطعة ما من اثاث بيته . وأخيرا ، كان في وسع المولى ان يفرض على الفلاح سخرات وغرامات اخرى حسبما يحلو له (حتى يأذن له بـــأن يقترن بامرأة ، بأن يغير منزله ، بأن يهب غيره ماله ، الخ) .

لم تكن التبعية التي يرزح الفلاحون تحت نيرها على الصعيد الشخصي والقضائي والاداري مصدر مداخيل اضافية للمولـى فحسب . بل كانت الفكرة العميقة وراء ذلك الشكل من الاستعباد شيئا آخر ايضا . لقد كانت الاتاوات العقارية تشتمل في ذاتهــا على عناصر التبعية الاقتصادية للطبقة الفلاحية . لكن حين يكون في حوزة الفلاحين قطعة ارض وأدوات انتاج خاصة بهم ، مــا كان في المستطاع حملهم على تسليم افضل ثمار عملهم من دون اللجوء الى نوع من إكراه غير اقتصادي ؛ وبعبارة اخرى ، كان من الضروري ان يكون للمولى سلطان مباشر على شخـص الفلاح . وكانت حالة التبعية هذه قابلة لان تتلبس اكثر الاشكال تنوعا ، بدءا من القنانة الى حصر الحقوق .

كانت أشكال الاكراه غير الاقتصادي تؤلف واحدا من السمات المميزة لنمط الانتاج الاقطاعي .

ولدى الفرنجة كانت تبعية الفلاح الفردية تقترن باستئثـــار كبار الملاك بالاراضي الفلاحية والمشاعية . وكان الفلاحـــون ، الاحرار فيما غبر من الايام ، يضطرون اذا ما عضهم البؤس بنابه

---

١ ـ حق المولى في ان يتمتع بالعروس في الليلة الاولى . «م»

الى وضع انفسهم تحت حماية جيرانهم الاقوياء ، وإلا ما كـــان يسعهم ان يأملوا ، في تلك الحقبة التي تعج بالحـــروب وبغارات الموالي ، في المحافظة على حياتهم والمتبقي من اموالهم . وكـــان ذلك الشكل من الحماية (التي رأت أشكالها الجنينية النور منــذ ايام الامبراطورية الرومانية) يسمى بالشفاعة Patronat ، كما كانت المبادرة الى وضع النفس تحت حماية المالك الكبير تسمــى بالتزكية Recommandation .

الدولة في العصر الوسيط الاعلى :

كان تطور أشكال تبعية الطبقة الفلاحية (وخاصة التبعيـــة الشخصية والقضائية والادارية) يرتبط وثيق الارتباط بارتقـــاء البنية الفوقية للمجتمع الاقطاعي . وفي البدء ، كانت الوظيفــة الاولى للحكومات الاقطاعية في العصر الوسيط الاعلى (الدولـــة الفرنجية على سبيل المثال وغيرها من الممالك البربرية) هي قمــع الحركات الشعبية التي يقوم بها الارقاء والفدادون في الاقاليـــم المفتوحة ، وجباية الخراج من سكان ايطاليا وسائر الاقاليـــم الرومانية . وفي زمن لاحق ، تكفلت الدولة ايضا بضبط وتطويع الفلاحين الذين كانوا أحرارا فيما مضى . وكانت الدولة الاقطاعية تؤدي باخلاص وحمية وظيفتها الرئيسية ، وظيفة تعزيز الوضع السيادي لكبار الملاك العقاريين .

لقد اكتمل تكوّن المملكة الفرنجية بصورة نهائية في القرنين الثامن والتاسع من العصر الوسيط الاعلى . وكانت سمتها المميزة التجزؤ والاستقلال السياسي لكبار الموالي والسادة .

التناقض الرئيسي في المجتمع الاقطاعي :

كان مصدر مداخيل الموالي الشطط في استغلال المنتجين المباشرين ، اي الفلاحين ، وفي زمن لاحق ، الحرفيين . وكان معيار الاستغلال يميل باستمرار الى الارتفاع . وكانت الغالبية الساحقة من السكان تحيا تحت رحمة اقلية من الملاك العقاريين. وهذا ما كان يحدد التناقض الرئيسي في المجتمع الاقطاعي .

والى جانب الطبقات المتناحرة الرئيسية كان في المجتمع الاقطاعي فئات اخرى ، كالحرفيين على سبيل المثال .

وكما في عهد الرق ، كان مركز مختلف طبقات الاقطاع وفئاته الاجتماعية يتحدد بوجود تجمعات من اشخاص لهم وضع حقوقي معين (كانت الطبقة السائدة تضم على وجه الخصوص النبلاء الزمنيين والروحيين) . وفي حالات اخرى ، كانت فئة واحدة (كالطبقة الثالثة الفرنسية على سبيل المثال) تضم عدة شرائح اجتماعية تبلورت فيما بعد الى طبقات او تجمعات طبقية : فلاحين ، حرفيين ، تجار ، مرابين .

واقترن استرقاق جمهرة الفلاحين الفرنجة بصراع طبقي ضار . وكانت أشكال هذا الصراع شديدة التنوع ، بدءا من الفرار الى التمرد المسلح .

كانت تلك الهبّات العفوية والمنعزلة بعضها عن بعض مكتوبا عليها سلفا الفشل . لكن النضال الطبقي للجماهير الشعبية كان يرغم السادة والنبلاء على تحديد مقادير ثابتة للاتاوات ، الامر الذي كان يوفر بعض الحماية للمنتجين المباشرين للسلع والخيرات المادية من عسف المستغِلين .

وفي زمن لاحق ، أمسى مقدار الاتاوات مرهونا بميزان القوى بين الطبقات المتنافسة .

لم يكن التنظيم السياسي للمجتمع الاقطاعي الفرنجي يخدم

سوى هدف واحد : ابقاء الجماهير الشعبية في إسار الخنوع . وفي بعض الاحوال ، كان كبار النبلاء والسادة يتوصلون الى قمع الفلاحين المتمردين بقواهم الخاصة . ولكن الدور الحاسم في القمع كان يعود الى السلطة الملكية بصفتها تجسيدا للنبالة الاقطاعية في جملتها .

روسيا كييف :

انطوى تشكيل الطبقات والدولة لدى السلاف الشرقيين في الفترة ما بين القرن السادس والقرن التاسع على عدد من المظاهر الخاصة . وآية ذلك ان سلطان الامبراطورية الرومانية لم يمتد الى اقاليمهم . وترتيبا على ذلك ، لم تمارس العلاقات الرقية تأثيرا مباشرا على نظام السلاف الاجتماعي . وقد آلت المشاعة البدائية عندهم الى انحلال في الحقبة التي كان فيها الرق قيد التعفن في المناطق التي كانوا على احتكاك بها . وقد جاء السلاف الشرقيون الى الاقطاع مباشرة ، من دون مرور بالتشكيلة الرقية. وقد تكونت الطبقات الاقطاعية الرئيسية لديهم في القرنين التاسع والعاشر . وتحول الاعضاء الاحرار في المشاعات الى فلاحين مستقلين ، يستغلهم الملاك العقاريون الاقطاعيون .

رأت النور لدى السلاف الشرقيين في القرن التاسع دولة وسيطية تقليدية كانت عاصمتها كييف . وكان في اساس تلك الامارة قبيلة البولان او الروس Rouss . وحول تلك القبيلة تجمعت في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر غالبية قبائل السلاف الشرقيين .

ففي القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر كانت روسيا كييف (كما تسمى تلك الدولة الروسية الوسيطية) تمثل

تكتلا متينا ذا اقتصاد ناهض . وكانت قوتها ترتكز الى استغلال عديم الرأفة للفلاحين والحرفيين الذين كثيرا ما كانوا يتمردون ، على كل حال ، على مضطهديهم .

كان الفلاخون المسترقون يعملون في اراضي الموالي مباشرة (السخرات) او يؤدون لهم الاتاوات عينا .

وشرعت الحرف بالتطور ، منفصلة تدريجيا عن الزراعة . وكان الحرفيون الذين لا يبارحون القرى يسقطون في أغلال التبعية للموالي الاقطاعيين . اما الحرفيون الذين كانوا يقيمون حول القصور الحصينة فكانوا يؤلفون أرباضا وضواحي حرفية . ورويدا رويدا تكونت مدن كمراكز للصنائع والحرف . ومن هذه الزاوية ، سبقت روسيا الكييفية اوروبا وتقدمت عليها ، لان تلك الظاهرة لم تحدث في اوروبا الا في زمن لاحق ، في عصر ازدهار الاقطاع . وتشير الحوليات الى وجود ٨٩ مدينة في روسيا في القرن الحادي عشر .

اما عن المستوى الرفيع للحضارة المدينية الوسيطية في روسيا ، فلنا عليه شهادة في وثائق العصر المكتوبة (مئات النصوص على قشر شجر البتولة ، أماطت اللثام عنها الحفريات الاثرية في نوفغورود) .

كانت التجارة الخارجية ايضا متطورة . وكان التجار الروس يجوبون بلاد الخلافة وبيزنطة وبوهيميا وبولونيا وألمانيا واسكندنافيا . وكانوا يبيعون الفرو والشمع والعسل والقطران والنسيج الكتاني والحلي والاسلحة ، ويشترون من الاجنبي السلع الكمالية والخمور والثمار والتوابل .

كانت الدولة الوسيطية الروسية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر تتمتع بنفوذ دولي كبير . فبالتوازي مع الروابط التجارية ، كانت تتطور علاقاتها السياسية والثقافية بالغرب الاوروبي وبيزنطة .

وجاء الغزو المغولي في القرن الثالث عشر ليوقف على نحو فظ ومباغت تقدم كييف الاقتصادي والسياسي . ومما سهل مهمة الفاتحين تفاقم التجزئة الاقطاعية وتفسخ السلطة المركزية في البلاد .

اما في آسيا فقد اخذ توطد الاقطاع اشكالا متباينة في كل قطر .

تكوين الاقطاع في آسيا :

ظهرت البنى الاقطاعية الى حيز الوجود في الصين بدءا من القرن الثالث (بل في زمن أبكر ، بحسب بعض المصادر) . وقد تواقتت هذه الظاهرة على الصعيد السياسي مع انحلال أقوى امبراطوريات الصين (امبراطورية الهان) واعادة تجميع البلاد على يد سلالة تسن . وتتجلى خصوصية الاقطاع الصيني في ان احتكار الطبقة السائدة للاراضي والمياه لم يأخذ شكل الملكية الخاصة ، وانما شكل ملكية الدولة التي تعود العلة فيها ، شأنها شأن ملكية الدولة في الحقبة الرقية ، الى درجة المركزية العالية المرتبطة بالاشغال العامة وببناء المنشآت الضخمة المحصنة . وانما في تلك الحقبة تحديدا بدأ العمل في سور الصين الكبير .

في عهد الامبراطور الاول تسن تسو ما ين (٢٦٥ ــ ٢٩٠) صدر مرسوم عن اراضي الدولة المفرزة . وبموجب ذلك القانون، كان الفلاح يتلقى قطعة ارض تقسم الى قسمين . وكان دخل القسم الاول يخصص لتلبية حاجاته الخاصة ، بينما كان المحصول الذي انتجه القسم الثاني يذهب بكامله الى السلطات . وكان الفلاحون ملزمين ، علاوة على ذلك ، بصيانة شبكات الري ،

وبتحفيض الارض (١) ، وبالمشاركة في بناء منشآت عسكرية . وكان ذلك كله يؤلف شكلا خاصا من أشكال السخرة . لكن القنانة ، اي العمل الفلاحي في اراضي الموالي ، الشائعة غاية الشيوع في اوروبا ، كانت شبه معدومة في الصين . وكانت الاقطاعات المولوية الكبيرة غير كثيرة فيها . كذلك لم يكتب النجاح لمحاولةانشاء مزارعدولةفيها فلاحونأقيان Attachés á la plèbe

تحت تأثير تقدم العلاقات الاقطاعية في الصين قامت أسس الاقطاع في كوريا واليابان . وقد ولج هذان القطران الى النظام الاقطاعي بعد المشاعة البدائية مباشرة ، متجنبين بذلك مرحلة الرق . وقد بدأت العلاقات الاقطاعية بالظهور في اليابان في القرن الرابع .

وفي القرن الخامس ، وتحت تأثير الصين ايضا ، بدأت العلاقات الاقطاعية ترجح كفتها في شبه جزيرة الهند الصينية .

اما المثال الكلاسيكي على المجتمع الاقطاعي الذي بقي محافظا على نظام الرق البدائي ، فتقدمه لنا الهند التي لم يتعرض تطورها لاي تأثير اجنبي . فهناك كانت السيادة للرق الابوي ، كما كانت مخلفات المشاعة البدائية في غاية القوة .

لقد ارتسمت معالم البنى الاقطاعية الاولى في الهند في القرنين الخامس والسادس . وكان لاقتصاد المشاعة البدائية فيها عصرئذ ، كما في السابق ، طابع استكفائي وطبيعي . وكان الانتاج الحرفي في المدن يضع نصب عينيه ، قبل كل شيء ، حاجة النبالة . وكان تبادل السلع الحرفية يتم ، بوجه خاص ، بين المدن الكبيرة .

وفي شبه الجزيرة العربية اخذت العلاقات الاقطاعية في الدول التي تشكلت فيها أشكالا مغايرة . فقد رأت النور عدة

---

١ ـ اي تجفيف الاراضي الرطبة عن طريق شق اقنية لتصريف المياه. «م»

امبراطوريات عربية وانحلت وبعثت من جديد في الالفين الثانية والاولى ق.م. ومملكة حِمير ، في اقليم اليمن الراهن ، هي وحدها التي دامت حتى اواسط القرن السادس ب.م . وفي زمن لاحق ، لم يبق على قيد الوجود سوى مدن ــ دول رقية ، نظير مكة والمدينة . لكن العلاقات الرقية لم تبلغ قط في شبه الجزيرة العربية مستوى رفيعا . اما العلاقات الاقطاعية ، فقد شرعت بالتطور هناك في القرن السابع ، على اساس انحلال علاقات المشاعة البدائية التي كانت قائمة لدى القبائل البدوية .

وفي جميع اقطار آسيا كانت العلاقات الاقطاعية تتوطد عبر نضال ضارٍ تخوضه الجماهير الشعبية ضد ملكوت المستغِلين .

ظهور العلاقات الاقطاعية في القارة الافريقية :

ينطوي نشوء العلاقات الاقطاعية وتطورها في شمال افريقيا، وكذلك في اقاليم جنوب الصحراء الكبرى ، على العديد من أوجه الشبه مع تاريخ اوروبا وآسيا ، ولكن مع بعض السمات الخاصة.

ان واحدة من اقوى الدول من النمط الاقطاعي التي ظهرت في تلك القارة كانت امبراطورية غانا . وقد رأت النور على الارجح في القرن السابع ب.م ، في الاقليم الواقع بين السنغال والنيجر . وكانت الاقوام التي تقطنها يومئذ تنطق بلغات مجموعة ماندينغ (١) (البامبارا وغيرهم) . ولم يتم الى الان بيان معالم البنية الاجتماعية والاقتصادية للامبرايورية بتفاصيلها . والشيء

---

١ ــ ماندينغ : مجموعة اثنية في افريقيا الغربية ضمت من الاقوام المالنكه والبامبارا والديولا . «م»

الوحيد الذي نعرفه هو انه كان على رأس الدولـــة متجبرون اقطاعيون . وفي نهاية القرن الثامن تسلمت مقاليد السلطـــة سلالة سيزه . وتوارث الحق في العرش عن طريق النساء (كان ابن أخت الملك يرث عن خاله) يشهد على وجود بعض مخلفات من العلاقات العشيرية البدائية . كذلك لبثت على قيد الوجود بعض عناصر الرق. وكان المتجبرون الغانيون يوجهون في كثير من الاحيان حملات مسلحة الى الامصار المجاورة ، بغية الحصول منها على يد عاملة مسترقة .

لم يكن التقسيم الاجتماعي للعمل ، على ما هو ظاهر ، متقدما كثيرا ، لان التجارة الخارجية ، لا الداخلية ، هي التي كانت تلعب الدور الحاسم . وكان يجري بوجه خاص تصدير الملح والذهب. وكانت التجارة تتم ، في المقام الاول ، مع الاقطار المغربية .

تكونت عدة مراكز تجارية في المدن ، ومنها غانا وجنة . وقد أسهم تقدم المدن في نشر الثقافة ، وعلـــى الاخص في انشـــاء المدارس .

٢ ـ عصر ازدهار الاقطاع

نهضة الصناعة اليدوية والتجارة :

ان واحدا من المظاهر المميزة للاقطاع المكتمل التكوين هـــو نهوض المدن بصفتها نقاط احتشاد حرفي وتجاري ومراكز انتـاج سوقي . وكانت ظاهرة انفصال الزراعة والصناعة اليدوية ، التي بدأت في الازمنة البدائية وتسارعت في عصر الرق ، قد توقفت في العصر الوسيط الاعلى . وكان انحطاط الامبراطوريات الرقية وثيق الصلة بالركود الاقتصادي ، وبتراجع المدن ، باستثنـــاء

حاضرات آسيا وافريقيا الشمالية .

في ظل الاقطاع لم يحدث التمايز والافتراق بين الزراعة والصناعة اليدوية على حين فجأة . وانما جاء تتويجا لسيرورة طويلة الامد ومعقدة ، حفزها تقدم القوى الانتاجية في المجتمع الاقطاعي .

وفي الغرب الاوروبي تحديدا ، وفي فرنسا تخصيصا، برزت تلك الظاهرة بأجلى ما يكون . وكان الكثيرون من الفلاحين هنا يسددون الريع عينا ، لا في شكل سلع غذائية فحسب ، بل ايضا في شكل سلع حرفية ، وفي غالب الاحيان نسيجية (اجواخ وأصواف) .

كان تحسن متواصل يطرأ على ادوات الفلاحة مع مرور الزمن ، وقد عرف رواجا واسعا المحراث ذو السكة الحديدية . وحلت محل الوقيد والبور وغيرهما من اساليب الزراعة البدائية المناوبات الثنائية والثلاثية بصورة نهائية . وازدهرت زراعة الكروم والبساتين المثمرة والبقول السبخية . وصار في وسع الاسرة الفلاحية الآن ان تكرس المزيد من الوقت للنشاطات الحرفية المساعدة ، بل ان بعض اعضائها بدأوا يتفرغون لها تماما .

كان بعض الفلاحين يسددون الريع بكامله للموالي في شكل سلع حرفية . بل غالبا ايضا ما كانوا يزودون بها قريتهم بأسرها ، مما اتاح لهم ان يراكموا بعض الوفر . ولئن لبثوا فلاحين ، فان الزراعة لم تعد مصدر رزقهم الوحيد .

دخل تقدم المهن في طور جديد حين بدأت الاتصالات تتوطد بين الحرفي والسوق . ففي عهد تكوين الاقطاع ، كان الفلاحون يمارسون مهنا مساعدة ، وكان يباح لهم ، بإذن من مولاهم ، ان يذهبوا لبيع منتجاتهم في اقرب المعارض التي كانت تقام ، في ايام العطل ، تحت أسوار القصور والاديرة الكبيرة . لكن تلك التجارة كانت ذات طابع عارض ، ولا تمثل قطيعة مع الوسط

الزراعي الاصلي : فالمنتجات الحرفية ما كانت تتحول الا بصورة عارضة الى بضائع .

تم الافتراق بين الحرفيين والزراع ، في بادىء الامر ، في اطار الاقطاعة الضيق . لكن مع تقدم التخصص ، صار الحرفي يتوجه اكثر فأكثر الى الاسواق لتصريف انتاجه . وهكذا صار قسم من منتجاته يمثل بضاعة .

ما كان في مقدور الحرفي المختص ان يعثر على سوق كافية في الريف . ثم انه كان ينوء تحت وقر الاستغلال الاقطاعي . وكان الفلاحون ـ الحرفيون ينزعون الى هجر الاقطاعة والى قصد اماكن يسعهم فيها ان يجدوا بسهولة اكبر منفذا لتصريف منتجاتهم وأن ينعتقوا من نير المولى .

كان بعضهم يفعل ذلك خلسة ، عن طريق الهرب ، وكان بعضهم الآخر يغادر القرية بإذن من المولى مقابل التعهد بأداء مبلغ معين من المال له . وكان الموالي بحاجة دائمة الى المال ، فكانوا يطلقون سراح أقنانهم بذلك الشرط . وفي البدء ما كانوا يأذنون لهم بذلك الا لفترة معينة من الزمن ، وعلى سبيل المثال كي يذهبوا الى المعرض في الشتاء ، حين لا تكون هناك حاجة ماسة الى اليد العاملة في الاراضي المولوية . لكن تلك المأذونيات صارت اطول أمدا فيما بعد .

كان الفلاحون الهاربون من القرى او النازحون بإذن من مولاهم يفتشون عن الاماكن التي يسهل فيها عليهم بيع منتجاتهم الحرفية ، اي الاماكن القريبة من مصادر المواد الاولية والمتوفر فيها أمان نسبي . وكانوا يجدون تلك الاماكن تحت أسوار قصور الملوك والامراء وأحبار الكنيسة ، وكذلك في المراكز الادارية الكبرى . وكان الاقنان الذين شقوا عصا الطاعة يفضلون ايضا الاقامة على مقربة من الاديرة الكبيرة ، المحصنة هي الاخرى عادة .

كان الفلاحون النازحون من القرى يسعون الى الاستقرار في الاماكن التي تتوقف عندها القوافل وفي مفارق الطرق البرية

والنهرية حيث تكثر عمليات المقايضة ؛ ومن جهة اخرى كان الحرفيون يتمكنون فيها من تصريف بضائعهم بسهولة اكبر . وثمة سبب آخر ايضا وهو ان الاقنان الفارين كانوا يجدون في تلك الاماكن مصادر لكسب أود حياتهم كعتالة او نوتية الخ .

على ذلك النحو كان الفلاحون (بصورة عامة أقنان هاربون) ينعتقون تدريجيا من النير الاقطاعي ، ولاسيما ان الملك والمولى المحلي كانا معنيين بدورهما بالحصول على يد عاملة رخيصة .

كان الفلاحون ، اذا ما افلحوا في جمع وفر بسيط ، افتدوا انفسهم من السخرات المترتبة على التبعية الشخصية . وفي حالات اخرى ، كانوا يمتنعون بكل بساطة عن دفع الريع وعن العودة الى القرية . وما كان في مقدور الموالي ان يرجعوهم بالقوة. وهكذا صار اولئك الفلاحون احرارا .

كانت المهن تمثل القاعدة الانتاجية للمدينة الوسيطية . وكان الحرفي ، شأنه شأن الفلاح ، منتجا صغيرا : فقد كانت له عدة عمله وكان اقتصاده يقوم على كده الشخصي ، وما كان طموحه يتعدى كسب رزق يومه ، وما كان يفكر بأن يربح .

كان اهل المهن يجتمعون ضمن اطار اتحادات حرفية . وكان كل اتحاد حرفي مفتوحا لمثلي مهنة معينة . وكان يسعى الى اخضاع الانتاج لبعض القواعد : كأن يحدد أحجام قطع الجوخ التي ينتجها الحرفي ، او مواصفات المواد الاولية المستعملة ، الخ. كذلك كان يعين حجم الانتاج . وبوجه عام ، ما كان يجوز ان يكون للمعلم الحرفي اكثر من عريفين اثنين compagnon ومساعدين اثنين apprenti .

كانت انظمة الاتحاد الحرفي تحدد أجور العرفاء ، وكذلك قواعد بيع المنتجات . كما كان يجري تحديد أسعار البضائع المنتجة سلفا .

اسهمت الاواصر التجارية بين ايطاليا وجنوب فرنسا وبين

بيزنطة وبلاد المشرق في نهضة مدن عديدة نظير البندقية وجنوى وبيزا ونابولي في ايطاليا ، ومرسيليا وآرل وناربون ومونبيلييه في فرنسا . وقد طفقت المدن ، باعتبارها مراكز للتجارة والمهن ، بالنشوء في ايطاليا وفرنسا ابتداء من القرن الثامن ؛ اما في المانيا وانكلترا فقد رأت النور في القرنين العاشر والحادي عشر .

كما ذكرنا آنفا ، كانت كييف مدينة كبيرة منذ القرن العاشر او الحادي عشر . وفي الحقبة نفسها اضحت نوفغورود مركزا حرفيا وتجاريا هاما. كذلك لعبت كل من تشيرنيغوف وسمولنسك وبولوتسك دورا لا يستهان به في الاقتصاد الروسي الوسيطي .

في الفترة ما بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر تأكدت اهمية موسكو في دورها كملتقى للطرق التجارية . وقد تسارع تقدم المدينة بدءا من منتصف القرن الثاني عشر ، الى ان غدت في مستهل القرن التالي عاصمة لإمارة .

يومئذ ايضا تكونت شريحة اجتماعية جديدة ، شريحة التجار الذين يتعاطون بوجه خاص التجارة . كانوا يشترون من الحرفيين منتجاتهم ويعيدون بيعها في الاسواق .

رويدا رويدا اندمج المعلمون الحرفيون المفلسون والعرفاء والمساعدون المبتدئون مع سائر فقراء المدن ، المعادين لنخبة المجتمع المديني : السماسرة ، المرابين ، الحرفيين الاثرياء والموالي الاقطاعيين المستقرين في المدن .

شكل جديد للملكية الاقطاعية :

وضع تغير الشروط الاجتماعية ، المرتبط بتقدم العلاقات السوقية ، الطبقة الحاكمة المؤلفة من الموالي الاقطاعيين امام ضرورة تبديل أشكال السلطة السياسية . وكانت الدولة الاقطاعية تعكس ، في تجليها الجديد ، الميل الى المركزة ، وهو

الميل الذي كانت تفرضه ايضا الوحدة الاقتصادية لاقاليم شاسعة. ان التوحيد السياسي هو سمة بلوغ الاقطاع سن النضج .

وجدت المركزة وسائر التعديلات الطارئة على التنظيم السياسي اقوى تعبير عنها في انكلترا وفرنسا . فحتى القرن الخامس عشر كان صراع الطبقات التاريخي يخاض في فرنسا بتماسك منطق لم يعرفه اي بلد آخر ، وكانت الاشكال السياسية لذلك الصراع تبرز للعيان بأكبر قدر ممكن من الوضوح والجلاء.

بدأ توطد السلطة الملكية في فرنسا في القرن الثاني عشر واكتمل في القرن الخامس عشر . فكان الملوك يفرضون طاعتهم على اكبر الموالي الاقطاعيين واعظمهم نفوذا ، وكان معولهم في ذلك على مقطعي الموالي الذين ملوا مما يعانون من سادتهم من نهب وجور .

وقد ارتأت السلطة الملكية ، بصفتها حامية لمصالح مجمل طبقة الموالي الاقطاعيين ، انه من المناسب والمفيد ان تدعم التجارة والصناعات الحرفية في المدن . ومن هذا المنظور ، كانت تؤدي يومئذ دورا تقدميا .

على الرغم من توطد السلطة المركزية ، كان ملوك فرنسا يبادرون بين الفينة والفينة الى دعوة مجلس كبار النبلاء في المملكة الى الانعقاد . وكانوا يفعلون ذلك في حال احتياجهم الى الحصول على موافقة كبار المتنفذين الزمنيين والروحيين على وضع بعض الاجراءات الهامة موضع تطبيق .

بدءا من القرن الثاني عشر شرع الملوك يدعون الى تلك المجالس ممثلي الاوساط الميسورة في المدن الكبيرة . وبدءا من القرن الرابع عشر ، اي في عهد فيليب الرابع الجميل ، صارت تلك المجالس تسمى بالهيئات العامة Etats Généraux

(بالتعارض مع الهيئات الاقليمية (Etats Provinciaux [1] .

كان ممثلو الطبقات ordres (الاكليروس ، النبالـــة ، نواب المدن) يساندون مشاريع الملكية ، لكنهم كانوا يطالبـــون بالمقابل ببعض التنازلات . وبهذه الصورة ، توصلوا الى ممارسة تأثير مباشر على السلطة .

وقد قام نظام التمثيل هذا نفسه في الحقبة ذاتها في بلدان اوروبية اخرى (وبخاصة البرلمان في انكلترا) . وكان بمثابة طور جديد في تطور الدولة الاقطاعية . وكانت ملكية الطبقات الثلاث التعبير السياسي عن سيادة طبقة الموالـــي الاقطاعيين ، وكانت مناظرة للمرحلة الجديدة من تطور القوى الانتاجية وعلاقـــات الانتاج ، تلك المرحلة التي أعقبت نهوض المدن وتقدم المهـــن والتجارة . وكان ظهور ذلك الشكل من أشكال الدولة يعكس رغبة الطبقة الممسكة بمقاليد السلطة في تشديد قبضة استغلالهـــا للجماهير الشعبية .

الدولة المركزة الروسية :

تكونت الدولة المركزة الروسية في اواخر القرن الخامس عشر . وقد ترافقت اعادة تجميع الاراضي الروسية بتصفيـــة

---

١ ــ الهيئات العامة هي الهيئات التي كانت تضم ممثلي الطبقات الثلاث في فرنسا : الاكليروس والنبالة والطبقة الثالثة او البورجوازيـــة . وكانت وظيفتها استشارية . اما الهيئات الاقليمية فكانت تضم مندوبي الطبقات الثلاث نفسها في اقليم من الاقاليم . وكانت تقترع على الضريبة المسماة ب «الهبـــة المجانية» . «م»

النير المغولي الذي كانت روسيا تئن تحت وطأته منذ القرن الثالث. وصارت مدينة موسكو مركز الدولة الجديدة . وخلق الالغاء التدريجي للتجزئة الاقطاعية شروطا موائمة لنهضة البلاد اقتصاديا وثقافيا .

أدت اعادة تجميع الاراضي الروسية الى الابقاء على الملكية الاقطاعية ، وعلى رأسها كبير الامراء . وتحولت دوما البوايار (مجلس أمراء كان يضم كبار الموالي) تدريجيا الى مؤسسة دائمة. وظهرت الى حيز الوجود اجهزة ادارية ؛ وقد تطورت في القرن السادس حتى غدت ما يشبه الوزارات : «بريكازات» . وتكاثرت القيود المفروضة على امتيازات كبار نبلاء الارض . وفقد الموالي حقهم في البت قضائيا في القضايا الهامة التي صار يتولى الفصل فيها الولاة ، اي الممثلون المباشرون لكبير الامراء .

بدأت ملكية الطبقة المغلقة caste تتكون في روسيا في اواسط القرن السادس عشر . ففي عام ١٥٤٩ دعي للانعقاد للمرة الاولى **مجمع الارض** (مجمع ممثلي الشريحة العليا من الطبقة الحاكمة ، المؤلف من البوايار وأحبار الكنيسة ونبلاء بلاط كبير أمراء موسكو) . وفي مجمع ١٥٦٦ تمت الموافقة على حضور مندوبي التجار والحرفيين في الجلسات .

توطدت أركان الدولة الروسية في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في عهد ايفان الرابع الملقب بايفان الرهيب (١٥٣٠ ــ ١٥٨٤) . فبعد تنصيبه على سدة العرش ، انتزع بالقوة لنفسه لقب «قيصر عموم روسيا» . وفي آخر عهده كانت الحدود الروسية قد امتدت من البلطيق في الغرب الى إيينيسي في سيبيريا الغربية ومن المحيط المتجمد الشمالي الى سفوح القفقاس والبحر القزويني .

الاقطاع في آسيا :

بدأت مرحلة ازدهار الاقطاع في الصين في القرن الثامن ، في عهد سلالة تانغ . وقد ارتسمت وقتئذ معالم شكل جديد للملكية العقارية الاقطاعية . وقد أخلى نظام مفرزات الدولة مكانه تدريجيا للاملاك المولوية . وكان كبار الموالي ، ومن بعدهم صغار النبلاء ومتوسطوهم ، ينزعون الى الاستحواذ على قسم متعاظم الاهمية من الاراضي التي يشتغلها الفلاحون .

ورويدا رويدا تقوضت أسس سيادة الاقتصاد الطبيعي واندماج الزراعة والحرف ، المميزين لنظام مفرزات الدولة . واشتد ساعد الانتاج السوقي ، واجتذبت المدن القديمة المعلمين الحرفيين والتجار . وتفاقمت حدة الفوارق في الثروة بين اعضاء المشاعة الفلاحية . وفي اواخر القرن الثامن تم الاعتراف رسميا بملكية الموالي للاراضي التي احتكروها .

كان الاكليروس البوذي ، في الصين ، يستحوذ على املاك عقارية واسعة للغاية . وفي اواسط القرن التاسع كانت أملاك الاديرة تحتل ستين مليون هكتار .

وقد استفحل شر التجزئة السياسية للبلاد بنتيجة الانتقال الى أشكال جديدة للملكية العقارية .

وقد زادت حدة تلك التجزئة في مستهل القرن العاشر ، بعد سقوط سلالة تانغ . لكن بقيت من المركزة عناصر عديدة ، الامر الذي ابقى بدوره على الوحدة السياسية في وضع أمتن من ذاك الذي كانت عليه في اوروبا في الحقبة نفسها . والفضل في ذلك يعود الى عوامل موروثة من عهد الرق (أشغال عامة كبرى لصيانة وتطوير السدود والاقنية وشبكات الري) . وكان من المستحيل تنفيذ تلك الاشغال على مستوى الاملاك المجزأة .

في الهند ، تكونت العلاقات الاقطاعية في زمن مبكر نسبيا ، وذلك ابتداء من القرن السابع الميلادي .

كانت الاملاك الاقطاعية على نوعين . فبعضها كان يخص الموالي الذين كانوا ملزمين ، مقابل حق الانتفاع بها ، بالخدمة العسكرية لحساب الامراء (المهراجات) . وبوجه عام ، صارت تلك الاملاك شيئا فشيئا وراثية . وكانت اراض اخرى تنعم بنظام الاقطاع الحر . وكان المهراجات يستحوذون من جهتهم استحواذا مباشرا على املاك عقارية واسعة .

حين كان المهراجات يوزعون الاراضي على المقطعين ، ما كانوا يكتفون بمصادرتها من المشاعات الريفية ؛ بل لم يكن من النادر ايضا ان تتحول تلك المشاعات عينها الى ملكية خاصة للنبلاء .

وكانت حالة ركود المشاعة الهندية تسهل على الطبقة الاقطاعية مضاعفة استغلالها لها .

وثمة خصيصة اخرى حافظ عليها المجتمع الهندي منذ عهد الرق ، وهي انقسامه الى «جاتات» ، اي الى «طوائف» او «طبقات مغلقة» castes كما درجت الترجمة . وكانت الجاتات تضم مختلف شرائح السكان تبعا لمهنتهم وأصلهم . كانت ضربا من التقسيم الاجتماعي للعمل . وكان الهدف من مؤسسة الجاتات وما يزال تأبيد استغلال الجماهير الكادحة .

اما خصوصية الدولة الاقطاعية في شبه الجزيرة العربية فتكمن في انالجماعة الدينية كانت هي النواة للتجميع السياسي. وكان مؤسس الاسلام ، محمد (ولد في مكة في حوالي العام ٥٧٠ ، وتوفي في عام ٦٣٢) ، تاجرا ينتمي الى العشيرة الهاشمية من قبيلة قريش .

دول القارة الافريقية :

في الحقبة نفسها تقريبا شرعت الدول الاقطاعية الاولى

تتكون في افريقيا ، في جنوب الصحراء الكبرى .

على اثر غارات قبائل سوسو فقدت امبراطورية غانا في مطلع القرن الثالث عشر قوتها الغابرة. ورويدا رويدا انتقل دورها الى مالي ، وهي دولة أسستها شعوب مجموعة مالنكي . وكانت قد قامت امارة صغيرة لمالي بين النيجر والباخوي قبل القرن الحادي عشر . وقد أسهم تقدم الزراعة (وبخاصة زراعة القطن) واستثمار مناجم الذهب وتطور المهن وتوسع الروابط التجارية في تعزيز قوة مالي . وفي العام ١٢٤٠ هزم واحد من اصحاب السلطان فيها ، ويدعى سوندياتا (او ماري ـ دياتا) ، الجيش واجتاح عاصمة غانا .

وفي اواخر القرن الثالث عشر غدت العاصمة (وكانت تدعى هي ايضا مالي) مركزا تجاريا هاما . وعقدت **الامبراطورية** صلات تجارية وثقافية واسعة مع بلدان جنوبي المتوسط .

في النصف الاول من القرن السابع عشر سقطت مالي تحت الضربات المتضافرة التي سددها اليها السونغهاي والفولبه والبامبارا . عندئذ نمت وترعرعت دولة اقطاعية جديدة ، هي دولة السونغهاي . وكانت اراضيها تقع في الجزء الشرقي من السودان الغربي الحالي .

كانت دول السونغهاي الاولى قد بدأت بالتكون في مفترق القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفي القرن السادس عشر مد السونغهاي هيمنتهم : فقد صاروا يبسطون نفوذهم من منابع النيجر الى شلالات بوسا ، ومن الصحراء الكبرى في الشمال الى بلاد بوبو وموسي في الجنوب . وكما في سائر دول السودان الاخرى ، كان عمل الارقاء يلعب دورا كبيرا في انتاج السونغهاي الاجتماعي . لكن غالبا ما كان الارقاء يمنحون قطعا من الارض يتولون استثمارها مقابل ريع بالمحاصيل الزراعية ، على غرار الكثيرين من الفلاحين الاقنان . وكان أحفاد الارقاء يدعون

ديوغوراني . وبالرغم من انهم ظلوا يُعتبرون أرقاء ، اكتسبوا بعض الحقوق المدنية بدءا من الجيل الثاني . فعلى سبيل المثال ، ما عاد بيعهم مباحا . وكثيرا ما تمرد الفلاحون الاقنان والارقاء والديوغوراني على مضطهِديهم .

في مستهل القرن السادس عشر وقعت المصادمات الاولى بين السونغهاي وسلطنة مراكش . وخرج ملوك السونغهاي منتصرين من ذلك الصراع الذي دام قرنا من الزمن . لكن امبراطوريتهم أصابها وهن شديد بنتيجة ذلك ، لم تلبث معه ان تهاوت في اواخر القرن السابع عشر .

القرن السابع عشر هو قرن ازدهار البينان ، الامبراطورية التي تحتل اراضي نيجيريا الجنوبية الحالية . وقد انشأ اليوروبا والإيدو الذين كانوا يعمرون تلك المناطق حضارة رفيعة التطور فيها .

مثلت امبراطورية الكونغو هي الاخرى تشكيلة دولانية اقطاعية . وفي عهد ازدهارها (القرون ١٥ ـ ١٨) امتدت اقاليمها من نهر كوانغو شرقا ، الى نهر كوانزا جنوبا ، الى شطآن الاطلسي غربا ؛ وكان حدها الشمالي يبعد بمسافة ٥٠٠ او ٦٠٠ كيلومتر عن مجرى نهر الكونغو . وكانت جميع تلك المناطق مأهولة بقبائل متصاهرة : باكونغو ، باسوندي ، مايومبه ، الخ . وكانت اللغة الرسمية الكيشيكونغو .

كان عمل الارقاء يلعب دورا كبيرا في الانتاج . وكان الارقاء يكلفون بأشق الاعمال . وكانت المهن متنوعة ، والتجارة مزدهرة. وكانت علاقات اجتماعية مشابهة تسم بميسمها جيران الكونغو في الجنوب والجنوب الشرقي ، اي انغولا ومونوموتابا .

ايديولوجيا المجتمعات الاقطاعية وحضارتها. دور الدين والكنيسة

ما كانت طبقة الموالي الاقطاعيين تكتفي ، تعزيزا منها

لسيطرتها على الجماهير الكادحة ، بالاستغلال الاقتصادي والاسترقاق السياسي بل كان النشاط الايديولوجي واحدا من افضل اسلحتها . وكان الدور الفاصل في ايديولوجيا المجتمع الاقطاعي يرجع الى الدين ، وفي أوروبا الى الكنيسة . فقد كانت الكنيسة ، بما تطلقه من وعود عن السعادة في السماء تعويضا عن الاوجاع على الارض ، تصرف الجماهير الشعبية عن النضال ضد الموالي ، وتربي الشعب على الطاعة والخنوع . وفي تلك الحقبة التي كانت فيها الحياة الروحية بأسرها تستلهم من الدين ، كانت الكنيسة تكفل وتضمن بما تتمتع به من حظوة ونفوذ النظام الاجتماعي القائم .

كانت كل حضارة العصر الوسيط الاخلاقية تحمل البصمة العميقة للدين والكنيسة .

وتقدم الكاثوليكية مثالا كلاسيكيا على ذلك الدور . كانت المسيحية ، كما هو معروف ، قد اضحت الديانة الرسمية لمالكي الارقاء في عهد الاباطرة الرومان . وفي العصر الوسيط جعلت الطبقة الممسكة بمقاليد السلطة من الكنيسة المسيحية حصنها الايديولوجي . وفي القرن الحادي عشر ، على اثر القطيعة بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية ، غدت الكاثوليكية القاعدة الايديولوجية للاقطاع في الغرب الاوروبي قاطبة .

كانت الكنيسة الكاثوليكية تعكس حتى في بنيتها التراتب الهرمي المألوف للاقطاع . فقد كان على رأسها البابا والسدة الرسولية . ثم كان يأتي بعد ذلك الكرادلة والاساقفة والآباء ، الخ . وفي أسفل السلم كان هناك خوارنة الابرشيات .

كانت الكنيسة نفسها تعدّ من اكبر الملاك العقاريين . ومن ذلك ان نوتردام دي باري ودير سان ترون (في البلدان الواطئة) كانا من اوسع الاملاك الاقطاعية في أوروبا . فقد كان في حوزتهما اراض مفلوحة ، وكروم ، وغابات ، ومراع شاسعة ، ومرابط

خيل لا يحصى لها عد ، وقطعان هائلة . وكان أمراء الكنيسة يجبون فضلا عن ذلك العشر ، اي عشر مدخول كل فلاح .

كانت الحضارة الغربية للعصر الوسيط الاعلى وللاقطاع متشربة بالروح الكهنوتية ، في شكلها الكاثوليكي تحديدا .

كان اللاهوت الكاثوليكي قد نحى جانبا فلسفة الاقدمين . وصارت الآداب تقتصر على «حياة القديسين» ، والتاريخ على حوليات الاديرة . كما وضع الشعر والموسيقى والفنون كافة في خدمة الكنيسة . وكان التعليم والمدارس حكرا لرجال الدين .

هذا الاحتكار للثقافة ، لم تفز به الكنيسة سلما ، بل نتيجة لعراك ضار مع النبالة الاقطاعية من جهة ، ومع أنصار الفكر الحر والجماهير الشعبية من الجهة الثانية . وكانت الكنيسة الكاثوليكية (شأنها شأن سائر الكنائس الاخرى على كل حال) تصب انتقامها الارضي على الهراطقة الذين كانوا يعكسون الى حد ما الالهام الديني الشعبي .

غدا الاسلام في العصر الاقطاعي واحدا من اوسع الاديان انتشارا . وبدءا من الجماعة الدينية المسلمة تكونت الامبراطورية الاقطاعية في شبه الجزيرة العربية . وشكل دين الاسلام البنية التحتية الايديولوجية للمجتمعات الوسيطية على امتداد الاراضي التي فتحها العرب . وقد عرف من ثم انتشارا واسعا في العديد من اقطار آسيا وافريقيا ، والى حد ما في اوروبا . وكانت العقيدة الرسمية تتعايش ونظام الاستغلال والاسترقاق القائم . وكان التفاوت في الثروة يعتبر امرا قضى به الله ، ومن ثم لا يقبل تبديلا . وكان الفقراء يدعون ، كما في العقيدة المسيحية ، الى البحث في الآخرة عن عزاء للاوجاع والتعاسة الارضية .

تستأهل البوذية هي الاخرى ، بحكم انتشارها ، لقب الديانة العالمية . و«البوذية» متأتية من اسم مؤسسها الاسطوري ، بوذا .

تطورت البوذية في بادىء الامر في الهند القديمة انطلاقا من

بعض أطروحات البراهمانية . وكانت في البداية ايضا الدين الرسمي لطبقة مالكي الارقاء .
في العصر الوسيط أقصتها الهندوسية تدريجيا من الهند ، لكنها اجتذبت بالمقابل أتباعا جددا في البلدان المجاورة . وقد شرعت بالانتشار في الصين في القرن الاول ب.م ، وأدركت ذروة تطورها في الفترة ما بين القرن الرابع والقرن السابع . ثم انتقل بعد ذلك دور الديانة السائدة هنا الى الكونفوشية ، لكن هذه الاخيرة لم تتمكن قط من استئصال شأفة البوذية بصورة نهائية . ومن الصين تسللت البوذية الى كوريا واليابان وسيام وبرمانيا وكامبوديا والى بلدان اخرى في شبه قارة الهند الصينية ، وكذلك الى سيلان والنيبال ومنغوليا .
ترى الايديولوجيا البوذية ان العالم الظاهر ما هو الا وهم ، تجل خادع لمبدأ روحي صوفي معين تعمره الغبطة او النيرفانا . ويتطابق هذا المبدأ مع المفاهيم التي يجسدها الله في الديانات الاخرى . فما الحياة الا أوجاع وآلام ، ولا خلاص الا في البحث عن النيرفانا . وفي زمن لاحق اعتنق المذهب البوذي بدوره مفهومي النعيم والجحيم ، فازداد اقبال الجماهير الواسعة عليه ، وتعزز في الوقت نفسه موقعه كديانة رسمية لطبقة الموالي الاقطاعيين ، وكفلسفة غرضها تبرير التفاوتات الاجتماعية .

تقدم الايديولوجيا المناهضة للاقطاع . الهرطقات الدينية :

لم تحل الهيمنة الايديولوجية للمذاهب المثالية والدينية (المسيحية في اوروبا ، الاسلام والبوذية وغيرهما في آسيا وافريقيا) دون وجود تيارات معاكسة .
فعلى الرغم من الاضطهادات والملاحقات ، ظلت العناصر

التقدمية في المجتمع الوسيطي تسعى الى الاستفادة من الافكار المادية . وكما في العصور القديمة ، كان الاقطاع عصر صراع ضار بين الفلسفات .

كان اللاهوتيون الكاثوليك (توما الاكويني وآخرون) يعتمدون اعتمادا جوهريا على بعض الفلاسفة المثاليين من العصور القديمة وعلى مذهب ارسطو الذي حوروا فحواه . اما المفكرون العرب فقد أسهموا من جانبهم في اشاعة تصورات الماديين القدامى . ومن اولئك المفكرين ينبغي ان نخص بالذكر في المقام الاول ابن سينا وابن رشد . وكانت وجهات نظرهما قريبة غاية القرب من وجهات نظر ديموقريتس . فقد رأى ابن رشد في المادة واقعا موضوعيا ، وفي الذرات جزيئات مادية . وأقر بأنه يوجد ، الى جانب «النفس الخالدة» الخاصة بكل فرد ، عقل كوني شمولي ينصهر والنفس في بوتقة واحدة ساعة فعل المعرفة . وكان احد الجوانب الهامة في وجهات نظره أطروحته الديموقراطية عن المساواة العقلية لبني الانسان بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي . وقد استفاد من افكار ابن رشد مفكرو اوروبا الغربية الطليعيون وكيّفوها مع الشروط الاجتماعية والاقتصادية الخاصة لقارتهم ومع التقاليد المادية التي كانت ضاربة الجذور فيها . وقد غدت الافكار المادية سلاحا بالغ النفع في النضال الايديولوجي للعناصر التقدمية ضد طبقة الاقطاعيين المتربعة على سدة السلطة .

كان اول تعبير عن المادية الوسيطية ما سمي بالمذهب الاسمي ، وهو تيار ايديولوجي نشأ في القرن الثالث عشر . وكان أنصاره (ولاسيما الفيلسوفين الانكليزيين دونز سكوتوس ووليم الاوكامي) يعترفون بالطابع المادي للعالم ويرون في الطبيعة مبدأ كل شيء ، والمعطى الاول بالنسبة الى الوعي . وقد أكدوا ايضا ان معرفة الكون ممكنة . وكانت ماديتهم ميكانيكية . وفي زمن لاحق ، اشتد ساعد العناصر المثالية ضمن نطاق الاسمية (بدءا من نهاية القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر) .

كانت المعارضة المناهضة للاقطاع تقوم على أكتاف البورجوازية الميسورة وعلى أكتاف الفلاحين وفقراء اهل المدن على حد سواء. وكانت ترتبط بأوثق الصلات بالكفاح ضد الديانة والكنيسة السائدة .

من الممكن الكلام اذن عن هرطقة مدينية وهرطقة فلاحية . وكثيرا ما كانت الهرطقات ، باعتبارها شكلا ايديولوجيا لصراع الطبقات ، تتداخل وتتراكب مع الانتفاضات المسلحة ضد السلطة الاقطاعية . وكانت المعارضة المدينية والفلاحية تجد تعبيرها احيانا في المذاهب الصوفية المناوئة للديانة الرسمية .

وقد مهد ذلك الكفاح ضد المثالية والدين الميدان امام ظهور المادية والإلحاد المحدثين .

نضال الجماهير الشعبية المناهض للاقطاع :

كان الاستغلال الاقطاعي يصطدم بمقاومة الفلاحين والحرفيين الضارية . وكان في اصل الصراع الطبقي الذي خاضته الجماهير الكادحة التناقض بين الاستقلال الاقتصادي للمستثمرة الصغيرة والتبعية غير الاقتصادية للمنتج ازاء المولى الاقطاعي .

كانت أشكال ذلك الصراع رهنا بالشروط التاريخية العينية: مستوى القوى الانتاجية ، أشكال علاقات الانتاج ، طابع المؤسسات السياسية .

وابان المراحل الثلاث التي اجتازها المجتمع الاقطاعي ، تنوعت علل وأهداف وأشكال نضال الجماهير (الفلاحين في المقام الاول) ضد المستغلين . صحيح ان الرغبة في الانعتاق من السخرات والالتزامات الاخرى تجاه المولى كانت رغبة عامة ، لكن النضال الطبقي للشغيلة ما امكنه ان يقوض أسس النظام الا يوم بلغ

الاقطاع كتشكيلة اجتماعية طور الانحلال . اما قبل ذلك ، فكانت علاقات الانتاج الاقطاعية ما تزال موائمة لتقدم القوى المنتجة .

كان كفاح الفلاحين موجها في العصر الوسيط الاعلى ، كما ذكرنا آنفا ، ضد نظام القنانة . وقد اتسم الاقطاع المتطور (المتميز بظهور المدن وبنهوض العلاقات السوقية) بعواصف بالغة العنف .

في اوروبا ، كانت المدن تكافح بلا هوادة ضد مواليهـــا وسادتها لتنتزع منهم الحق في تصريف شؤونها بنفسها، ولتفلص السخرات وضرائب الحرب ولتنظمها . وفي زمن لاحق ، اندلع الصراع في داخل المدن بالذات بين الشرائح العليا والاتحـــادات الحرفية التي كانت تريد بدورها المشاركة في تسيير أمور البلدة، وكذلك بين الاثرياء من اهل المدن والحرفيين من جهة وبين العرفاء والمساعدين المبتدئين من الجهة الثانية. وكان هؤلاء الاخيرون يلقون الدعم والمؤازرة من أفقر شرائح السكان .

كثيرا ما كان يشارك في صراع الطبقات في الارياف الفقراء من اهل المدن . وفي هذه الاحوال كانت التناقضات الاجتماعية تبلغ درجة عالية من الاحتداد . وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر اجتاح اوروبا بأسرها تقريبا مد من انتفاضـــات الفلاحين وفقراء اهل المدن . حسبنا ان نأتي بذكر الثورة المعروفة باسم ثورة الرعاة Pastoureaux في عام ١٢٥١ ، والحركة الشعبية في جنوب البلدان الواطئة وفرنسا في عام ١٣٢٠ ، والحركـــة التي تزعمها دولشينو والتي هزت ايطاليا بين ١٣٠٥ و١٣٠٧ ، وانتفاضة ايتيين مارسيل وهبة الفلاحين بين ١٣٥٧ و١٣٥٨ في فرنسا ، وتمرد فات تايلر في ١٣٨١ في انكلترا ، والحركـــة الثورية للهوسيين في بوهيميا في مطلع القرن الخامس عشر .

في آسيا ايضا عرف عهد الاقطاع المزدهر انتفاضات شعبية كبرى . ونخص بالذكر هنا ثورات شعب خلافة بغداد في القرنين الثامن والتاسع ، وانتفاضات فلاحي دلهي (الهند الشمالية) في مطلع القرن الرابع عشر بقيادة الحاج مولى ، وحرب الفلاحين في

القرن التاسع وحركة «الاوشحة الحمر» في القرن الرابع عشر في الصين ، وانتفاضات ١٢٣٣ والنصف الثاني من القرن الخامس عشر في كوريا ، ومد الانتفاضات والهبات في اليابان في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، والحروب الفلاحية في روسيا بقيادة ايفان بولوتنيكوف في مستهل القرن السابع عشر ، وبقيادة اسطفان رازين في الربع الاخير من القرن ذاته .

كان لكل واحدة من تلك الحركات الشعبية خصائصها .

وكانت الحروب الفلاحية ، الرامية الى تخفيف وطأة الوضع الذي يرزح تحته الكادحون ، تساهم في تقدم القوى المنتجة للمجتمع الوسيطي . كان دورها ثوريا اذن بمضمونه ، وعامل تقدم موضوعيا. وما كانت صبوات الفلاحين تتجاوز عادة الانعتاق من نير السخرات الاقطاعية وتملك الاراضي التي يفلحونها . بل ما كانوا يجرؤون ، اثناء بعض الانتفاضات ، على المطالبة بالغاء جميع ضرائب الحرب والسخرات ، وانما كانوا يطالبون فقط بتخفيفها . وكان الضلال يبلغ بهم حد الاعتقاد بأن بخس مطالبهم يضمن لهم تنازلات من قبل الطبقة السائدة .

وقد آلت جميع الحروب الفلاحية الى اخفاق وفشل بسبب افتقار الثائرين الى التنظيم وتشتتهم الناجم عن الشروط النوعية للعمل الفلاحي ، وكذلك بسبب افتقارهم الى زعماء محنكين .

٣ ـ عصر انحلال الاقطاع

حافظت تلك المظاهر المميزة لنمط الانتاج الاقطاعي على اهميتها في الحقبة الثالثة والاخيرة من العصر الوسيط . لكن نشوء العلاقات الرأسمالية جعلها عرضة لتغيرات هامة . وقد

بدأت تلك الحقبة في القرن السادس عشر ، وان تكن العناصر الاولى لنمط الانتاج الراسمالي قد ظهرت في المدن الايطالية ابتداء من القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

التغير في الاقتصاد . الشروط التاريخية لظهور الراسمال ؛ تراكمه البدائي :

في الحقبة الثالثة والاخيرة من العصر الوسيط ادرك تطور القوى الانتاجية مستوى رفيعا طفقت معه العلاقات الرأسمالية تعلن عن ظهورها في رحم الاقتصاد الاقطاعي في كل مكان. وكانت تلك الظاهرة على صلة وثيقة بتكون طبقتين جديدتين ، البورجوازية مالكة وسائل الانتاج وأدواته ، والبروليتاريا او العمال الاجراء المحرومين من تلك الوسائل ، والمضطرين بالتالي الى بيع قوة عملهم للراسماليين .

كان الرأسمالي يرغم الاجير على العمل اكثر مما هو ضروري لتأمين رزق العامل وأسرته . ونجم عن ذلك تكوين فائض القيمة الذي يستأثر به رب العمل . وكان استئثار رب العمل بفائض القيمة يشكل في آن واحد القانون الاساسي للرأسمالية والشكل النوعي للاستغلال في ظل هذا النظام .

كان تطور القوى الانتاجية الشرط الاول لولادة النظام الرأسمالي في رحم التشكيلة الاقطاعية .

كان استخدام الناعورة او العجلة المائية كمحرك معروفا منذ عهد الرق . لكن الناعورة كانت توضع آنذاك في مجرى الماء مباشرة . وابتداء من القرن الرابع عشر ، شُرع باستخدام الدولاب ذي الريش الذي يتولى تحريكه مسقط الماء . وقد طرأ بنتيجة ذلك تحسن ملموس على مُعامل المردود . وتنوع مذذاك

فصاعدا استخدام العجلة المائية في مختلف فروع الانتاج .

في القرن الخامس عشر ، وبعد اكتشاف الفـــرن العالي ، ابتكرت طريقة النفخ الميكانيكي بواسطة عجلة مائية مطورة . ولم تكن المنافيخ اليدوية ، قبل ذلك ، تسمح بصهر المعادن ، وانمــا فقط بتليينها . اما بعد ذلك الابتكار فقد صار في الامكان تمييعها وتسييلها ، مما أفسح في المجال لسبكها . وكان ذلك هو المبدأ الاول في صناعة الفولاذ ، الامر الذي ترتب عليه تحسن كبير في صنع العدة والادوات . فرأت النور المخارط والمصاقل والمثاقب .

وفي صناعة النسيج ، أخلت الانوال البدائية العمودية مكانها تدريجيا للانوال الافقية الاكثر تطورا .

وفي القرن الخامس عشر حلت ساعات الجيب محل ساعات الحائط التي كانت شائعة الاستخدام منذ القرن الثاني عشر .

لقد اتاحت العدة المعدنية المجال لتطوير صناعـــــة المراكب البحرية ولانتاج سفن ذات حمولة كبيرة ، صالحة للملاحة الطويلة الامد . كذلك طرأ تحسن كبير على البوصلة .

وتم اختراع المطبعة .

في ميدان الزراعة ايضا واصلت القوى الانتاجية تطورهـــا بفضل تحسين ادوات العمل . لكن التقدم هنا كان ابطأ مما فـــي الصناعة . ومع ذلك ارتفع تدريجيا مردود الحقول وزادت مساحة الاراضي المزروعة تدريجيا وتحسنت طرائق الفلاحة . والــــى جانب المناوبة الزراعية الثلاثية السائدة عصرئذ ، ظهرت المناوبات الاطول امدا وزراعة العشب في فترات استراحة الارض .

كان تقدم المدن الديموغرافي يحفز انتاج السلع الغذائية . كذلك زادت النهضة الصناعية من الحاجة الى الصوف والجلـد والكتان والقنب وغيرها من النباتات الصناعية .

وفي الحقبة الاخيرة من العصر الوسيط قفزت تربية الحيوان والبستنة وزراعة الكروم قفزة كبيرة الى الامام .

ومضى قدما الى الامام تخصص مختلف المناطق والاقاليم .

ورأت النور مناطق شاسعة للزراعة السوقية . وتخصصت البلدان الواطئة في تربية الابقار الحلوب وفي تجارة مشتقات الحليب . وانصرفت بعض مناطق اسبانيا كليا الى تربية خراف المرينوس (١) وبيع الصوف ، الخ .

عمق تقدم الصناعة والزراعة الهوة بين هذين الفرعين الانتاجيين ، وتولدت عنه اختصاصات صناعية جديدة . وتابع التقسيم الاجتماعي للعمل مسيرته ، حافزاً العلاقات السوقية وازدهار الروابط التجارية . وبدأت الاسواق تتخطى الاطار الاقليمي لتشمل بتوسعها البلد عن بكرة ابيه .

كان تطور التجارة ضمن تلك الشروط يسهم في انحلال الانتاج الصغير وفي ولادة العناصر الاولى للعلاقات الرأسمالية .

كان المستوى المرتفع نسبيا للانتاج السوقي يجعل مبالغ طائلة من المال تتراكم في ايدي بعض الاشخاص : تجار ، مرابين ، وما الى ذلك . وكانت تلك هي المقدمة الاولى لظهور الرأسمال ، على اعتبار ان الشرط الثاني الموائم لظهوره هو وجود كتلة من الافراد الاحرار بأشخاصهم ، ولكن المحرومين من وسائل الانتاج ، وبالتالي من وسائل المعاش . وترجع علة الظاهرة الاخيرة الى تصرفات النبالة الاقطاعية والبورجوازية الوليدة اللتين كانتا تعمدان بلا رحمة ولا شفقة الى مصادرة ما بحوزة الجماهير الكادحة . على ذلك النحو ، قامت شروط التراكم البدائي للرساميل . ولكن لدراسة المسار العيني لهذه الظاهرة ، يجدر بنا التوقف عند مثال انكلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اذ ظهرت فيها الرأسمالية في وقت مبكر واتسع نطاقها

---

١ ـ في الاصل غنم بني مرين ، وهو نوع من الضأن الاسباني الناعم الصوف . «م»

على نحو لم يشهده اي قطر آخر .

كانت انكلترا القرن السادس عشر دولة متواضعة نسبيا ، يقطنها ثلاثة ملايين او ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة . ولكن في ذلك القرن تحديدا بدأت نهضة الاقتصاد الانكليزي الذي جعل من بريطانيا العظمى في مدى ثلاثة قرون قوة عالمية ، واحدا من الاقطار الاكثر تصنيعا في العالم . وفي القرن السادس عشر ايضا كان نهوض الصناعة والزراعة الرأسماليتين في انكلترا .

كان التعاون البسيط هو الطور الاول لتطور الانتاج الرأسمالي في الصناعة . صحيح أن اطار ذلك التعاون بقي الورشة الحرفية المعهودة ، ولكن بعد ان كبر حجمها وزاد . وقد بات يعمل فيها مذذاك فصاعدا عدد كبير من المنتجين المباشرين ، المتحولين الى عمال أجراء ، لا لحسابهم الخاص ، وانما لحساب مقاول رأسمالي ، هو في غالب الاحيان تاجر او سمسار او مراب او معلم حرفي اصاب حظا من الثراء . ولم يكن لتقسيم العمل وجود بعد في تلك الورشات والمشاغل الرأسمالية ، بل كان العمال جميعا ينفذون عمليات متماثلة . ومع ذلك ، كان التعاون يحقق وفرا مرموقا في العمل ويساعد على زيادة المردود . وكان هذا التحسن في الانتاجية يزيد في ثراء رب العمل الرأسمالي .

اتسم القرن السادس عشر بتغيرات كبرى في جميع فروع الصناعة الانكليزية ، وعلى الاخص في ميدان انتاج الجوخ . فنتيجة للتقييدات التي استوجبتها تطاولات الاتحادات الحرفية في المدن ، بدأ انتاج الجوخ بالانتشار في الارياف . وكان الحاكة الريفيون يجمعون بين الزراعة وبعض المهن ، كالنسيج والغزل . وقد استفاد تجار ومرابون ومقاولون حرفيون صغار من نأي الحرفيين الريفيين عن الاسواق ومن عوزهم المادي كي يبتاعوا منهم نتاجهم .

كان هؤلاء السماسرة يحددون الاسعار كما يحلو لهم ويقرضون الحرفيين المواد الاولية والادوات ؛ هكذا تحولوا في نهاية المطاف

من محض وسطاء الى موزعين . وفي الواقع ، امسوا مقاولين رأسماليين صغارا يدفعون للحرفيين الذين كانوا مستقلين آنفا أجرا شديد التدني . وبالمقارنة مع التعاون البسيط الذي كان قائما في البداية ، تحول المشغل الى مشروع رأسمالي من نمط جديد ، قائم على اساس تقسيم العمل اليدوي . وكانت تلك المشاريع تسمى بالمانيفاتورة (من اللاتينية Manus اي اليد ، و Facere اي صنع) . وكانت المانيفاتورات التي من ذلك النوع تشاد من قبل التجار على الاخص ، وتسمى بالمانيفاتورات المبعثرة . وكان المنتجون المباشرون يفضلون في هذه الحال العمل في منازلهم ، لا في المشاغل والورشات .

ولكن كانت هناك طريقة اخرى لتنظيم المانيفاتورات . فقد كان رب العمل الصناعي يشتري الادوات والمواد الاولية اللازمة وينشىء ورشة واسعة يعمل فيها العديد من الاجراء . وتلك هي المانيفاتورة المركزة .

كانت الطريقة الثانية (طريقة مركزة الانتاج) تفتح آفاقا افضل بلا مراء لتقدم العلاقات الرأسمالية التي هي قيد التكوين.

وقد كان لتلك التغيرات في الصناعة آثار هائلة بالنسبة الى المجتمع الانكليزي بأسره على وجه العموم .

كانت صناعة النسيج الرأسمالية تتطلب مقادير من الصوف وأعدادا من اليد العاملة اكثر بكثير مما يتطلبه الانتاج الحرفي . وقد غدت تربية الخراف ، والحالة هذه ، مربحة . لكن القطعان الكبيرة تتطلب مراعي واسعة . والحال ان غالبية الاراضي الموائمة كانت مشغولة بالمستثمرات الفلاحية الصغيرة . وفي القرن السادس عشر ، شرع الموالي الاقطاعيون الانكليز Landlords الذين كانوا يربون الخراف في اراضيهم منذ زمن بعيد ، يطردون الفلاحين من مستثمراتهم ويصادرون قطع ارضهم الصغيرة . وقد اتخذت هذه الهجرة القسرية أبعادا هائلة . فأقوت مناطق شاسعة من البلاد من سكانها . وقد كتب داعية المذهب الانساني الانكليزي

توماس مور في مؤلفه المشهور **اليوتوبيا** يقول بصدد ذلك الموضوع: «لقد افترست الخراف هنا الرجال» . ولم يكن امام الفلاحين المنزوعة منهم املاكهم ، المطرودين من اراضيهم ، المحرومين من جميع وسائل المعاش ، لم يكن امامهم مناص من العمل في المانيفاتورات الراسمالية . وينبغي ان تقول ان السلطات الاقطاعية ساهمت في ذلك ما وسعها بمطاردتها المسعورة لـ «المشردين» ، ولاسيما عن طريق القوانين الهمجية التي لقبت بـ «التشريع الدموي» .

في فرنسا والبلدان الواطئة ايضا ، كانت مصادرة الفلاحين القسرية وسيلة للتراكم البدائي .

وكان من ضمن الوسائل والسبل الاخرى الديون العامة . فقد كانت السلطة بحاجة دائمة الى المال للانفاق على الجيش والجهاز الاداري . وما كانت الضرائب المعتادة على السكان تكفي لذلك . ولهذا كثيرا ما لجأت الحكومة الاقطاعية (في فرنسا بخاصة) الى اقتراض المال من التجار والمرابين مقابل فوائد مرتفعة .

من جهة اخرى ، اسهمت الحكومة الاقطاعية في التراكم البدائي بممارستها سياسة الحماية الجمركية . ففي فرنسا ، وفي انكلترا والبلدان الواطئة في زمن لاحق ، فرضت الحكومات رسوما فادحة على المنتجات المصنوعة الاجنبية الاصل وحرمت كذلك على حاملي جنسيتها تصدير المواد الاولية والحاصلات الزراعية . ومن جهة اخرى ، منحت التجار والمقاولين في اراضيها معونات ومكافآت ومزايا اخرى .

الاكتشافات الجغرافية الكبرى والفتوحات الاستعمارية الاولى :

نظير مصادرة الفلاحين القسرية ، فتح نهب الاراضي

المستكشفة حديثا والمحولة الى مستعمرات آفاقا رحبة امام تراكم الرساميل البدائي . وجاء تطور العلاقات السوقية ليلهب بسياطه الظمأ الى الاثراء لدى الطبقة الحاكمة المؤلفة من الموالي الاقطاعيين .

كان لألاء الكسب يدفع بهم نحو اقطار آسيا النائية . وكانت تسري الاساطير عن اقاليم خرافية في الغرب ، فيما وراء البحار. وكان اول من تدبر لنفسه مستعمرات الموالي والتجار الاسبانيون والبرتغاليون . وقد أوصل البرتغاليين ظمؤهم الى الذهب الى سواحل افريقيا . ثم شقوا طريقهم على امتداد الشاطىء الشرقي لتلك القارة حتى بلغوا اخيرا الهند .

وبدءا من القرن الخامس عشر شرع البرتغاليون بابتزاز الهند، ناهبين منها التوابل والذهب والعاج الخ .

في عام ١٤٩٢ وصل كريستوف كولومبوس ، الملاح الجنوي العامل في خدمة ملك اسبانيا ، الى سواحل اميركا . وأعلنت جميع الاراضي التي وطأتها قدماه ممتلكات للتاج الاسباني . لكن كولومبوس كان يجهل انه اكتشف قارة جديدة . وأول من انتبه الى ذلك هو الفلورنسي اميريغو فيسبوشي الذي وصف القسم الشمالي من اميركا الجنوبية . ولهذا يطلق اسمه على ذلك الجزء الجديد من العالم .

في مستهل القرن السادس عشر اكتشف ماجلان ، البرتغالي العامل في خدمة عاهل اسبانيا ، الطريق الجنوبية ــ الغربية للشرق الاقصى وأثبت اتصال المحيط الاطلسي بالمحيط الهادي. وكان ذلك اول طواف بحري حول قارة بكاملها في التاريخ .

تركت الاكتشافات الجغرافية الكبرى تأثيرا عظيما على حياة اوروبا الاجتماعية والاقتصادية . فقد نجم عنها ازدهار منقطع النظير للسوق العالمية ، وارتفاع مذهل في حجم البضائع المتداولة ، وبداية صراع الدول الاوروبية الكبرى على ثروات

القارات الاخرى ، وتدشين عهد الاستغلال الاستعماري .

لقد أسهم تطور تلك الظاهرات اسهاما جما في تقويض الانتاج الاقطاعي .

وكان لنهب المستعمرات المسعور انعكاسات بالغة الاهمية على اقتصاد اوروبا الغربية ، وعلى الاخص في اسبانيا والبرتغال . ونقصد هنا تحديدا ما سمي بثورة الاسعار . فقد كان سعر كلفة الذهب والفضة المستخرجين من مناجم اميركا بعرق اليد العاملة المسترقة ادنى من سعر المعادن الثمينة المتداولة كعملة تبادلية في اوروبا . وهذا ما جعل اسعار ضروريات الحياة تقفز قفزا . وكان اول من عانى من ذلك الفلاحون الفقراء ، المقطوعون عن الاسواق ، وكذلك شغيلة المدن .

نهب الفاتحون الاسبان ثروات الازتيك في المكسيك والانكا في البيرو ، وقضوا قضاء مبرما على حضاراتهم المتطورة . ثم وضعوا ايديهم ، بالاعتماد على تفوقهم العسكري ومساعدة المرسلين الكاثوليك ، على الجزء الاكبر من اميركا الوسطى والجنوبية .

وعلاوة على نهب الاقاليم المفتوحة بلا رادع او وازع ، اقام الغزاة نظاما متكاملا لاستغلال المستعمرات .

سارت فرنسا بدورها في طريق الفتوحات الاستعمارية واحتلت جملة من الاقاليم في اميركا الشمالية والجنوبية . وحظيت بشهرة خاصة شركات جزر الهند الشرقية التي اسسها في البداية الهولانديون ، وفي زمن لاحق الانكليز . وفي القرن السابع عشر توصل الانكليز الى اقصاء «زملائهم» الهولنديين عن الهند . وقد فاز هؤلاء الاخيرون بدورهم بالغلبة في اندونيسيا حيث كان الانكليز قد حاولوا ان يجعلوا لانفسهم فيها موطىء قدم.

لجأ المستعمرون في بادىء الامر الى التجارة غير المتكافئة . ثم زاد اعتمادهم اكثر فأكثر على السلاح . وتحولت الهند واندونيسيا الى مستعمرتين . وتسارع تقدم الاقتصاد الرأسمالي

استعمار افريقيا :

بدأ استعمار القارة الافريقية في القرن الخامس عشر . وكان اول من حط الرحال فيها البرتغاليون ، وما لبث ان تبعهم الاسبان . وقد نزل البرتغاليون على الساحل الاطلسي لمراكش، والاسبان على شاطيء تونس والجزائر . لكنهم طردوا منها في مطلع القرن السادس عشر على يد الامبراطورية العثمانية ،.وما لبثت افريقيا الشمالية بأسرها ان وقعت بعد ذلك تحت الهيمنة التركية .

في ذلك القرن الخامس عشر عينه توغل الاستعماريون البرتغاليون جنوبا . وحاولوا ان يؤسسوا نقاط ارتكاز على شاطىء خليج غينيا ، الخ .

وبعدهم بقليل بدأ الهولنديون والفرنسيون والانكليز ومستعمرون اوروبيون آخرون بغزو الشاطىء الافريقي .

في البدء كانت وسيلة التوسع الرئيسية التجارة غير المتكافئة ، اي نهب السكان المحليين نهبا شبه سافر . لكن الابادة الجماعية لهنود اميركا وانشاء مزارع كبرى في تلك القارة في القرن السادس عشر اوجدا حاجة ماسة الى اليد العاملة المسترقة . وفي افريقيا تحديدا عثر عليها المستعمرون . فقد راح «تجار الابنوس» يأسرون مئات الآلاف من الناس ، ويضربون عليهم الاغلال ، ويرحلونهم الى اميركا الشمالية والجنوبية والوسطى .

بحسب التقديرات التقريبية لوليم دي بوا اقتيد تسعمئة الف

رقيق افريقي الى اميركا في القرن السادس عشر . اما في القرن السابع عشر فقد بلغ ذلك الرقم مليونين وسبعمئة الف ؛ وفي القرن الثامن عشر سبعة ملايين ؛ وفي القرن التاسع عشر اربعة ملايين ؛ اي ما يناهز خمسة عشر مليون نسمة في المجموع . وتشير معطيات اخرى الى ان عشرين مليون نسمة على الاقل قد اقتيدوا من افريقيا الى اميركا .

كان آلاف مؤلفة من الافارقة يلقون حتفهم اثناء الغارات التي ينظمها النخاسون في القارة . وكان غيرهم – وعددهم اكبر – يموتون من الامراض والتعذيب اثناء شحنهم . ويفترض دي بوا انه مقابل كل رقيق يصل الى اميركا كان يموت خمسة على الاقل في افريقيا او في الطريق . ويقدر ان تجارة الرقيق قد كلفت ، بالاجمال ، القارة الافريقية ستين مليون نسمة . ويقدم مؤرخون آخرون أرقاما اعلى من ذلك .

في اواخر القرن الثامن عشر بلغت النخاسة ذروتها .

لكن رويدا رويدا شرعت القارة الافريقية ومستعمرات الاجزاء الاخرى من العالم تكتسب قيمة جديدة . فقد اتخذت منها الدول الرأسمالية اسواقا لتصريف بضائعها ومصادر لليد العاملة والمواد الاولية البخسة الثمن .

وفي الحقبة الامبريالية تحولت المستعمرات الى موردة للسلع الغذائية والمواد الاولية . كما تزايدت اهمية دورها العسكري والاستراتيجي .

أدى الصراع على المستعمرات في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الى تقاسم عام للكرة الارضية بين الدول الامبريالية الكبرى . وحتى في افريقيا ، التي «تأخر» استعمارها بالمقارنة مع آسيا وأميركا ، لم تبق اراض غير ملحقة بواحدة او بأخرى من الدول الاوروبية الكبرى . واضرم الاسترقاق والاستغلال الامبرياليان شعلة كفاح الشعوب المستعمَرة في سبيل

حريتها واستقلالها القومي .

تكوين الامم :

كان لنشوء العلاقات الرأسمالية وتقدمها تأثير منقطع النظير على النظام الاجتماعي والسياسي الاوروبي .

لقد بدأ تكوين الشعوب منذ عهد انحلال المشاعة البدائية . كان الشعب كيانا اكثر رقيا وتقدما تاريخيا من العشيرة والقبيلة. وفي البلدان التي قامت فيها علاقات رقية متطورة ، طفقت الشعوب تتكون بالتوازي مع الرق . وحيثما «قفز» التطور الاجتماعي فوق المرحلة الرقية ، تكونت الشعوب مع نظام العلاقات الاقطاعية في آن معا . وبصورة او بأخرى كانت تلك السيرورة قد اكتملت في العديد من اقطار اوروبا وآسيا في عصر الاقطاع المتطور .

تمخض تقدم العلاقات الرأسمالية عن ظاهرة اخرى ، ظاهرة تبلور الامم بدءا من الشعوب القائمة . وكان ذلك نتيجة لوحدة الروابط الاقتصادية وللمركزة السياسية . وقد تولدت عن توثق الاواصر الاقتصادية بين مختلف مناطق البلد شروط موائمة لتكوين لغات وحضارات قومية .

ولدت الامم من تقدم علاقات الانتاج الرأسمالية . وبعبارة اخرى ، كان للروابط والاواصر القومية التي تكونت على ذلك النحو طابع بورجوازي . كانت جميع طبقات السكان وشرائحهم تؤلف جزءا من الامة . ولكن لما كانت البورجوازية هي الطبقة السائدة من وجهة النظر الاقتصادية والسياسية ، فقد اتخذت الامم المتكونة طابعا بورجوازيا . وتنطبق هذه الملاحظة على مضمار الايديولوجيا ايضا .

بتوطد دعائم الامم اشتد ساعد البورجوازية بدورها . وكان

ذلك يعني ظهور طبقة مستغِلة جديدة ، وفي الوقت نفسه تطور الطبقة المناوئة لها ، البروليتاريا .

الحكم الملكي الاقطاعي المطلق :

ارغم تقدم العلاقات الرأسمالية النبالة الاقطاعية على إلباس سيطرتها الطبقية شكلا سياسيا جديدا . وكان ذلك الشكل الحكم الملكي الاقطاعي المطلق .

كانت طبقة الموالي تسعى الى استخدام تطور الانتاج على نحو يخدم مصالحها . وما كانت تعي في البداية الخطر الذي تتهددها به الرأسمالية ، فمحضت البورجوازية تأييدها . وكانت المصالح الاقتصادية تفرض الى حد ما التحالف بين النبالة والبورجوازية، وهو تحالف حافظت فيه الاولى على مركزها السائد . وما كان في وسع مولى اقطاعي ، حتى ولو كان عظيما ، ان يطوع بمفرده لارادته وأن يستخدم لصالحه المشاريع الرأسمالية على امتداد الاقاليم المجاورة لاملاكه . فمثل هذه المهمة ما كان يقدر عليها احد سوى الدولة الاقطاعية بجهازها الاداري المتشعب . وكانت الطبقة المتربعة على سدة السلطة تجني ، بما تفرضه من رسوم على المشاريع الرأسمالية ، بعض الفوائد من التجارة والصناعة . وفضلا عن ذلك ، كانت نفقات رعاية جهاز اداري وجيش جرار تتطلب مبالغ من المال متعاظمة باستمرار . وهذا معناه ان النبالة الاقطاعية كانت معنية بمضاعفة الضرائب والمصادر الاخرى لمداخيل الدولة . وقد اتخذ الريع الاقطاعي شكل ريع معمم ومركز .

على ذلك النحو ، كانت الحاجات الاقتصادية للطبقة الاقطاعية تدفع باتجاه المزيد من المركزة للجهاز البيروقراطي . وكانت هذه الظاهرة الاخيرة تشحذ من حدة التناقضات الطبقية ، لان نماء القوة الاقتصادية للبورجوازية كان يفاقم من شدة استغلال طبقة

الفلاحين والسكان الفقراء في المدن . وعليه ، كان الحكم الملكي المطلق يرى ان مهمته الاولى هي قمع تذمر الشغيلة والكادحين . ففي انكلترا على سبيل المثال ، قمع بوحشية انتفاضات الفلاحين المطرودين من اراضيهم . وفي روسيا ، واجهت النبالة مشقة ما بعدها مشقة في قمع الانتفاضة الفلاحية العارمة في القرن الثامن عشر بزعامة إمليان بوغاتشيف .

الثقافة والايديولوجيا في عصر النهضة :

انعكس اثر ازدهار العلاقات الرأسمالية في المدن الايطالية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر على صعيد الايديولوجيا ، فرات النور حضارة الرينسانس (١) التي تدين باسمها لإيمان الايديولوجيين البورجوازيين الاوائل بأنهم يبعثون الحياة في الحضارة اليونانية ــ الرومانية .

كان الانتاج الرأسمالي الآخذ بالنماء يحفز الاهتمام بدراسة الطبيعة ، مساهما بذلك في النهوض السريع للعلوم والتقنيات في نهاية القرن الخامس عشر .

في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، حدث انعطاف كبير في ارتقاء العلوم . فخلافا للعقائد الدينية ، بدأت دراسة الطبيعة استنادا الى التجربة العملية ، الى المخبر . وتحققت نجاحات هائلة في مضمار معرفة قوانينها . وكانت الاكتشافات العلمية توطد أقدامها عبر صراع شرس وضار ضد التصورات الاقطاعية والدينية الشائخة . وطفقت تتكون فلسفة جديدة أثرت

---

١ ــ Renaissance : عصر النهضة . حرفيا البعث . «م»

في جميع مضامير الحياة الاخلاقية والروحية : العلم ، الادب ، الفنون .

كان من اعظم وجوه عصر النهضة ليوناردو دافنشي ، الرسام وعالم الرياضيات والمهندس (١٤٥٢ ــ ١٥١٩) . ومن الشخصيات التي لا تقل عنه اهمية ميكل انجلو بيوناروتي (١٤٧٥ ــ ١٥٦٤) ، الرسام والنحات الذي لا يضاهيه احد في موهبته . ومن الرواد الآخرين للحضارة العالمية في ذلك العصر ، ينبغي ان نذكر الرسامين رافائيل سانتي (١٤٨٣ ــ ١٥٢٠) وتيزيانو (١٤٧٧ ــ ١٥٧٦) ، والشاعر أريوستو (١٤٧٤ ــ ١٥٣٣) ، والروائي فرانسوا رابليه (١٤٩٤ ــ ١٥٥٣) .

لقد أطلق رواد عصر النهضة على تيارهم الايديولوجي اسم المذهب الانساني ، وكان قصدهم من هذه التسمية الاشادة بالطابع العلماني للحضارة الجديدة ، وبانعتاقها من قيود الاقطاع والدين . وكان الانسانيون يلحون على قيمة الشخص الانساني .

لكن ايديولوجيي الرأسمالية الصاعدة اولئك كانوا يغالون في تمجيد النزعة الفردية ، وفي رغبتهم في الوصول الى النجاح الشخصي كائنا ما كان الثمن . وبعبارة اخرى ، كانوا يتغنون بمأثرة البورجوازي المحدث النعمة . ولهذا تتميز النزعة الانسانية البورجوازية لعصر النهضة تميزا جوهريا عن المذهب الانساني الحقيقي ، الشامل للبشرية قاطبة ، الرافع رايته الشغيلة .

الاصلاح الديني :

لئن كافحت البورجوازية ضد الكاثوليكية ، بصفتها الاساس الايديولوجي للمجتمع الاقطاعي ، فما كان في وسعها باعتبارها طبقة مستغِلة ان تستغني عن الدين بوجه عام . ولهذا وضعت

نصب عينيها لا تصفية الدين والكنيسة تمام التصفية ، بل اصلاحهما ، اي الاستعاضة عن الكاثوليكية بديانة اخرى . هكذا رات البروتستانتية النور .

نبذ دعاة اصلاح الدين والكنيسة العديد من عقائد الكاثوليكية الاقطاعية وطقوسها ودعوا الى منظومة عقائدية جديدة تتضمن استبطانا للدين ، وتقدم روح المؤمن وشعوره الشخصي على البنى المنظورة للكنيسة . ثم جرى في وقت لاحق تبسيط هذه البنى ، ففقدت طابعها الصلب والاحتفائي كتراتب هرمي اقطاعي ؛ وغدت اكثر تجاوبا مع الروح الاقتصادية التقشفية للبورجوازي :

كان البروتستانتيون يعتبرون **الكتب المقدسة** المصدر الوحيد لمعرفة الحقيقة ؛ وكان المؤمن حرا في تأويلها على النحو الذي يحلو له ، من دون ان يتوجب عليه الانصياع لسلطة عقائدية .

كان موطن **الاصلاح** المانيا . وتؤلف حركة **الاصلاح** والحرب الفلاحية الكبرى في ١٥٢٤ ـ ١٥٢٥ المعركة الاولى التي خاضتها البورجوازية ضد الاقطاع ، الفعل الاول للثورة البورجوازية في اوروبا .

ان روح البروتستانتية ، في معالمها وقسماتها التقليدية ، يجسدها مذهب ابن مدينة جنيف جان كالفان . فقد كان يؤكد ان مصير كل انسان مقدر سلفا من قبل الرب ، الامر الذي كان يعني تفريد العاطفة الدينية (الايمان) وفصلها عن اي احالة خارجية (الشروح) . كان كالفن يعظ بأن واجب التاجر والمقاول ان يضاعفا ثرواتهما ما استطاعا الى ذلك سبيلا ، لأن الرب نفسه قد اوكل اليهما أمر تدبرها . على هذا النحو صار استغلال اليد العاملة الاجيرة لدى الكالفينيين، ومن بعدهم لدى سائر البروتستانتيين، «عمل بر وتقوى» . وانتشرت الديانة البروتستانتية في جميع اقطار اوروبا التي آلت فيها الرأسمالية الى نهوض سريع .

الثورة البورجوازية في البلدان الواطئة في القرن السادس عشر:

دخلت القوى الانتاجية المواصلة لتقدمها في تناقض متزايد الحدة مع علاقات انتاج الاقطاع في طور أفوله . لكن ما كـــان للعلاقات الرأسمالية ان تتوطد بصورة نهائية من دون تصفيـــة المؤسسات السياسية الاقطاعية ، وفي المقام الاول الدولـــة الاقطاعية ، الامر الذي لم يكن اليه من سبيل بالتطور السلمي . ولهذا كانت الاطاحة الثورية بالنظام السياسي الاقطاعي تستجيب لقانون التطور الاجتماعي .

لئن كانت حركة **الاصلاح** والحرب الفلاحية الالمانيـــة اول محاولة مخفقة للثورة البورجوازية ، فقد كانت ثانية المحاولات الثورة البورجوازية في البلدان الواطئة في الفترة ما بين ١٥٦٦ و١٦٠٩ ، تلك الثورة التي اخذت شكل حرب تحرير قومي ضـــد السيطرة الاسبانية .

ان الثورة الهولاندية والثورات البورجوازية التي أعقبتها لم تضع حدا ، على الرغم من عظيم اهميتها، لاستغلال الانسان من قبل الانسان . وكل ما فعلته هو انها استبدلت حكم النبالـــة الاقطاعية بحكم البورجوازية .

كان الصانع الحقيقي لانتصار الثورة الهولاندية الجماهـــير الشعبية . وكانت اول ثورة بورجوازية يكتب لها النجاح . لكن تأثيرها على التطور اللاحق للاحداث الاوروبيـــة كان محدودا . وكان لا بد من انتظار الثورة البورجوازية الانكليزية في منتصـــف القرن السادس عشر ، وعلى الاخص الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر ، لاستهلال عهد النظام البورجوازي بأوســـع معاني الكلمة .

خاتمـــة

كما رأينا ، ليس الارتقاء التاريخي للمجتمع الانساني سوى انتقال من تشكيلة اجتماعية واقتصادية الى تشكيلة اخرى ، اكثر رقيا وتقدما . وكل تشكيلة تمثل المجتمع في مرحلة معينة من تطوره . ويقصد بمصطلح التشكيلة مستوى محددا من تطـــور القوى الانتاجية ، منظومة من العلاقات الاجتماعية والاقتصاديـة المميزة للتشكيلة موضوع البحث ، وأخيرا المؤسسات السياسية والنظريات الايديولوجية المناظرة لها .

لقد تولدت عن سقوط المشاعة البدائية الطبقات او تلـــك التجمعات الواسعة من الاشخاص الذين يملك بعضهـــم ادوات الانتاج ووسائله ، بينما الباقون محرومون منها .

وذلك ما حث الاوائل على استغلال الاخيرين وعلى الاستئثار بنتائج عملهم وتملكها . هكذا تكونت الطبقتان الاساسيتان فـــي المجتمع الرقي : السادة والارقاء .

ادى تقدم القوى المنتجة ، الذي هو محرك ارتقاء البشرية ،

الى التصفية الثورية للتشكيلة الرقية والى استبدال المجتمع الرقي بالمجتمع الاقطاعي . لكن هذا الاخير قام بدوره على استغلال الفلاحين والحرفيين من قبل الملاك العقاريين او الموالي الاقطاعيين .

كذلك لم تقض الثورات البورجوازية ، التي صفت حكم النبالة الاقطاعية ، على استغلال الجماهير الكادحة ، على الرغم من الدور الحاسم الذي لعبه الشغيلة في الكفاح من اجل الاطاحة بالاقطاع .

لكن منظورات تحرر الجماهير وانعتاقها تختلف كل الاختلاف اليوم .

لقد شق انتصار الثورة البورجوازية الطريق امامالراسمالية.

وقامت الشروط لتطور جديد ، ولتحول الاقتصاد . وتجلى جوهر هذا التحول في الانتقال من العمل اليدوي الى استخدام الآلات ، في الانتقال من المانيفاتورة الى المصنع .

وقد ارتدى هذا الانتقال شكل ثورة صناعية حقيقية . ولا تدين هذه الثورة بقيامها للنهوض السريع للقوى الانتاجية فحسب ، بل ايضا للتحول الطارىء على بنية العلاقات الاجتماعية بالذات .

لقد قلنا آنفا انه مع ظهور طبقة الرأسماليين بدأت تتطور الطبقة العاملة .

وقد غدت التناقضات بين العمال والرأسماليين (التي تعكس التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج والاستئثار الخاص بنتائج هذا الاخير) التناحر رقم واحد في المجتمع الرأسمالي .

كان استغلال العمال يتفاقم بلا انقطاع . فقد ألحقوا بالآلات، وتدنت أجورهم ، وأرغم الاولاد والنساء على العمل . وما كان الراشدون وحدهم يعملون ١٤ ــ ١٨ ساعة في اليوم ، بل ايضا الاولاد القاصرون .

افضت الثورة في الصناعة وتطور الرأسمالية الصناعية الى

تغيرات جذرية في ميزان القوى بين الطبقات وفي طابع الصراع الطبقي في البلدان التي حدثت فيها تلك الثورة . كان التوسع الرأسمالي يضاعف صفوف البروليتاريا ، فينعكس اثر ذلك على الحياة السياسية على نحو متعاظم. لكن البروليتاريا، في الاطوار الاولى من تقدم الرأسمالية ، ما كانت تلعب بعد دورا مستقلا . فقد كانت في البدء طبقة لاواعية لمصالحها ، طبقة «في ذاتها» . وفي زمن لاحق فحسب تحولت الى طبقة «لذاتها» ، تقف على اهبة الاستعداد للذود عن مصالحها في الكفاح ضد البورجوازية.

ورويدا رويدا اكتسبت مواقف العمال المناوئة للاستغلال الرأسمالي طابعا أشد عزما وأكثر تصميما .

وباتت البورجوازية ، وهي طبقة متكونة وواعية لمصالحها منذ امد بعيد ، تواجه البروليتاريا الصناعية المستعدة للنضال بلا هوادة في سبيل تحسين شروط حياتها .

وظهر الى حيز الوجود الاشتراكيون الطوباويون الذين كانوا يحلمون بنظام اجتماعي اكثر اتساقا وتناغما .

بيد ان كلا من الحركة العمالية والاشتراكية كان لها وجودها المستقل عن الآخر . فقد كان للاولى طابع عفوي تماما. اما منظرو الاشتراكية الطوباوية فما كانت عندهم اية فكرة علمية عن الارتقاء الاجتماعي للبشرية ، وكانوا عاجزين عن بث الوعي في الحركة الثورية البروليتارية . ولم يؤد احد حق الاداء تلك المهمة التاريخية الجليلة والعظيمة سوى المفكرين العبقريين والثوريين الكبيرين ، كارل ماركس وفريدريك انجلز .

لقد انشأ ماركس وانجلز فلسفتهما الثورية انطلاقا من الدراسة العميقة للتاريخ الكوني ، ولاسيما عن طريق تعميم تجربة صراع الطبقات والحركتين العمالية والاشتراكية . وقد تبنت الماركسية كل ما هو قيّم حقا في رقي الفكر والحضارة الانسانيين . لكن هذا لا يعني انها كانت مجرد استطالة او امتداد لتيارات الماضي الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية . وانما كان

ظهورها ثورة في العلم وفي الفكر الاجتماعي .

لقد انصرف ماركس وانجلز في آن معا الى انشاء الاسس النظرية للشيوعية العلمية والى النضال في سبيل انشاء حزب بروليتاري ثوري . وقد أدى ذلك الى تأسيس **رابطة الشيوعيين** في عام ١٨٤٧ ، و**رابطة الشغيلة الاممية** التي كانت بمثابة تجمع لعمال الاقطار كافة في عام ١٨٦٤ .

وقد اسهمت الجهود التي بذلتها في فرنسا فروع الاممية الاولى في تقدم روح المبادرة الثورية لدى الطبقة العاملة في ذلك القطر . وقد كان لذلك بدوره تأثير لا يستهان به في تمهيد الجو امام أحداث آذار ١٨٧١ التاريخية . ففي الثامن عشر من آذار من ذلك العام ، انتقلت سلطة الدولة لاول مرة في التاريخ ، ولمدة ٧٢ يوما ، الى أيدي الشغيلة ، الى أيدي الطبقة العاملة . وقد كانت عامية باريس التي رأت النور يومئذ اول تجربة لدكتاتورية البروليتاريا . وقد أغنت تعاليمها نظرية ماركس وانجلز الثورية .

دشنت عامية باريس مرحلة جديدة في التاريخ العالمي . ذلك انه في حوالي عام ١٨٧٠ كان قد تبلور النظام العالمي للرأسمالية . وقد اتسم الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين بتقدم سريع وجامح للقوى الانتاجية . واكتسب انتاج الفولاذ اهمية كبرى ، وتعاظم دور الانشاءات الميكانيكية . وقدمت الكهرباء للصناعة والمواصلات مصدرا للطاقة غير مرتفع الكلفة .

لكن القوى الانتاجية التي ما ونت في تطور مطرد دخلت اكثر فأكثر في تناقض مع علاقات الانتاج الرأسمالية . وقد امست هذه العلاقات كابحا لتقدم البشرية . واتخذ استغلال السكان الكادحين في المتروبولات ، والاضطهاد الاستعماري والقومي ابعادا لا مثيل لها . وكان بؤس الجماهير يتنافر على نحو صارخ مع تخمة حفنة من المالكين . ودخلت الرأسمالية في طورها الاعلى والاخير ، طور الامبريالية .

ان عدم نظامية التطور الاقتصادي للبلدان الرأسمالية في

الحقبة الامبريالية يشحذ التناقضات فيما بينها . وقد كانت الحرب العالمية الاولى النتيجة المنطقية لتلك التناقضات . وقد تحولت تلك الحرب الى ازمة عامة للنظام الرأسمالي .

في وجه سياسة الامبرياليين الرجعية ينتصب الكفاح الثوري للطبقة العاملة . وقد تمكنت الماركسية من الهيمنة في صفوف الحركة العمالية العالمية ، مما زرق نضال الجماهير الكادحة بدم جديد .

وانتقل مركز الحركة العمالية العالمية الى روسيا . فهناك رأى النور ، بالفعل ، حزب ماركسي ثوري كان على رأسه المتابع العبقري لصنيع ماركس وانجلز : فلاديمير لينين . وحزب لينين هو الذي تواج بقيادة ثورة ١٩١٧ الاشتراكية ، فأرسى اسس دكتاتورية البروليتاريا وسلم مقاليد السلطة للشغيلة .

لقد قصمت ثورة ١٩١٧ الروسية الجبهة العالمية للامبريالية. وافتتحت عصرا جديدا في التاريخ الانساني ، عصر استبدال الرأسمالية بالاشتراكية ، وتصفية النظام الاستعماري المخزي ، والنضال ضد الحروب العالمية البشعة التي يضرم نيرانها الامبرياليون .

الفهرس

٥٢٦ / ٣٠٠٠

هذا الكتاب

عاش الانسان الاول قبل ٦٠٠٠٠٠ عام ، لكن شوطه الحضاري الهائل لم يقطعه إلا في العشرة آلاف سنة الأخيرة ، وهذا الشوط الذي مرّ بمراحل ثلاث – المشاعة البدائية والرق والاقطاع – قبل الدخول في عصر الرأسمالية هو الذي يؤرّخ وينظّر له هذا الكتاب .

هو اذن جولة شاملة في تاريخ البشرية على امتداد القارات الخمس ، وجردة لمنجزات الانسان وصراعاته ، واعادة صياغة متكاملة للتاريخ الانساني الذي يستعيد على ضوء المادية التاريخية وحدته ولا يعود مجرد ركام وشتات متناثر .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

السعر : ٦٠٠ ق . ل
او ما يعادلها